بلاغة منتوجات العقلانية وانعكاسها في مرآة شعر الجنون

شعر (سعدون المجنون) أنموذجاً

إعـــــداد

د. أيمن عبد العظيم أحمد سيد

مدرس بكلية الآداب- جامعة أسيوط

Email: aymanazeem82@gmail.com

DOI: 10.21608/aakj.2023.200362.1428

تاريخ الاستلام: ١٥ /٣/ ٢٠٢٣م

تاريخ القبول: ٢ /٤/ ٢٠٢٣م

ملخص:

يعد العقلُ محركًا للإبداع؛ فهو الذي يمده بصنع العلاقات بين الأشياء والربط أيضًا بينها، وذلك عبر إدراكها والربط بين علاقاتها، وفي الشعر فإن العقل وسيلة الشاعر مع القلب في صياغة الشعر، ولكن أحيانًا يكون الجنون هو المحفز الأكبر للإبداع، وهذا ما سيعكسه شعر(سعدون) في البحث؛ حيث جعله الجنون مبدعًا في أغراض الشعر تمامًا كغيره من الشعراء، وجاء الجنون مكتنفًا لصورة متفردة رأى الشاعر عليها بعض الأمور فانعكست العقلانية بقوة في مرآة شعره لما أنتجته قريحته الشعرية من تفرد بنظرة ثاقبة لها، وكان (سعدون) من القلائل من مجانين الشعراء الذين تنوع شعرهم بين الوصف والزهد والحب الإلهي وأيضًا الشكوى والعتاب لزمان مجحف وأناس ارتضوا بالدنيا عن الآخرة، لذا كان شعره هو الكاشف عن عقلانية لديه كانت تكتنفها طبقاتُ الجنون، ولكن حين يُميطُ أحدٌ اللثام عنها يجدها ظاهرة جلية، والبحث هذا محاولة لسبر أغوار الجنون وكشف بنيته اللغوية والمنهجية، وهل كان الجنون عقبة في طريق الإبداع أم سببًا له أحيانًا؟ وبم اتصف شعر المجانين؟ وهل يمكن لهم اللحاق بركاب العقلاء من ذويهم؟ وكيف كان الجنون وكيف تشكلت العقلانية عبره في ثوبين: ذاتي وموضوعي، وهذا ما يعمل البحثُ على إيضاحه وإخراجه قدرَ الإمكان.

الكلمات المفتاحية: العقلانية، الجنون، سعدون.

Abstract:

The mind is the engine of creativity; He is the one who provides him with the relationships between things through his perception and the link between their relationships. In poetry, the mind is the means of the poet with the heart in formulating poetry, but sometimes madness is the greatest catalyst for creativity, and this will be reflected in the poetry of (Saadoun) in the research; Where madness made him creative in the purposes of poetry, just like other poets, and madness came shrouded in a distinctive image on which the poet saw some things, so rationality was strongly reflected in the mirror of his poetry due to the uniqueness of his poetic taste with an insightful look at it, and (Saadoun) was one of the few crazy poets whose poetry varied Between description, asceticism, and divine love, as well as complaining and admonishing from an unfair time, and people who were satisfied with this world over the hereafter, so his poetry was the revealer of his rationality that was shrouded in layers of madness, but when someone uncovers it, he finds it a clear phenomenon, and this research is an attempt to explore the depths of madness and reveal its linguistic and methodological structure. Was madness an obstacle to creativity or a reason for it sometimes? With what characterized poetry of mad mens? Is it possible for them to catch up with the wise men of their families? And how rationality was formed in two forms: subjective and objective, and this is what the research works to clarify and bring out as much as possible.

مقدمة:

ترد صورةُ العقل عند الأديب مرادفةً لما يصوره وكل ما يعمل على البوح به، وهو يختزل ما يدور في عقله ويسيطر على وجدانه في قوالبَ تميز هذا الأمر وتظهره بقوة، لذا، سمي الشاعر شاعرًا، وحين التعرض للمجانين من الشعراء والأدباء فإن المتلقي للوهلة الأولى يظن أنهم لفقدهم عقولهم قد فُقِد شعرهم، وأنهم سيكون أدبهم عامة وشعرهم بصورة خاصة لا ينم عن شاعر مفلَّق يعي تماما كيف يعبر عن نوازعه الداخلية ونفسيته المتقلبة بين حالات تنوعت وتجربة شعرية يمر بها، تمخضت عنها ألوان من الإبداع، ولكن من يأتي لأدبهم ونتاجهم يجد النقيض من هذا تماماً، فشعرهم، وإن لم يجارِ الفحول من غيرهم من الشعراء، إلا أن هذا الشعر تمكث بين جنباته تجربةٌ صادقة ولغةٌ معبرة بقوة عما يعتمل بنفسه، وما يجول في خاطرته، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على عقل قابع بين جنبات الجنون يعي، وقلب نابض يتأثر فيُشعِرُ صاحبه شعرًا معبرًا.

وهذا البحث يدور حول أحد الشعراء الذين وُسِمُوا بالجنون، إنه (سعدون)، الذي تحطم جنونه على صخرة شاعريته العاقلة؛ إذ يبوح شعره بنفس عاقلة وقلب نابض وعقل واع يدرك تماماً ما هو الشعر، إنه يترجم بمهارة عبره عن جنون من نوع خاص؛ ففيه يدحض جنونَهُ لتحل محله عقلانيةٌ نابضة واعية، تستمد قواها من النفس والمجتمع الذي عاش فيه معرضا عنه، وزاهدا في متعه، وكاشفاً عن تناقضاته، تماما كما هو التناقض الذي عليه من جنون يجاور العقل، وتظهر في شعره عقلانيةٌ تعكس شاعراً يعي جيداً تأثير كلماته لذا يجعلها تسبح في بناء متناغم لا يستطيع العقلاء أحيانا الإتيان به؛ فالحكمة والزهد، والوصف وغيرهم من الأنواع التي تظهر انعكاسا قوياً لعقلانية ناطقة هادفة، إنه جنونٌ خلاقٌ وبلاغةٌ تنعكس منه واضحةً جليةً.

وشاعرُنا (سعدون) حين يحاور جنونَه فإن عقلانيةً تظهر نتيجة هذا في شعره، وهو شعر لا يأتِي به العاقلون من حوله، وهو إن كان مجنوناً يهذي فإن الهذيان لغة لا

تُنْتِجُ عنده إلا إبداعًا يعجز عنه العقلُ الواعي، وتخرج العقلانية حينئذٍ إلى آفاق رحبة تعجز لغةُ العقل عن أن تنظم مثلها أحياناً، فكأن تحررَ العقل من عقاله هو تحررٌ للكلمات من سجن السكون والغياب إلى أفق الحرية والحضور القوي، فتنطلق سهام العقلانية من قوس الجنون تعرف طريقها جيداً إلى القاريء فتظهر له ما غاب عنه من أمور يراها سعدون حول الزهد والوصف والحب الإلهي، وما جاء في أمور يصبغ عليها حكمته وجنونه العاقل الهادف، إنها عقلانية معكوسة بقوة واقتدار وجنون عاقل أو هو جنون غير ذلك الذي ندركه نحن واعتدنا عليه، بل إن حلولاً لبعض مشكلات حياتنا لنجدها قابعة في هذا الجنونِ، إن الجنون هنا دعوةٌ للتخلص من العقلانية المذيفة التي يظن صاحبها أنه على هدى من أمره لامتلاكه إياها، ولكن بئس العقلُ الذي يورد صاحبه موارد الهلاك والانسياق وراء سراب لن يفيده شيئًا، إن الجنون هنا هو العقل المبصر المخترق لحجب الإنسانية وما يجب أن تكون عليه في الواقع.

ولكل ما سبق جاء هيكل البحث في تمهيد يضم مبحثين وفصلين رئيسيين متفاوتين في الطول كالتالي:

– التمهيد: المبحث الأول: سعدون (المجنون): حياته، وشعره.

– المبحث الثاني: في الجنون والعقلانية: المصطلح والأثر.

– الفصل الأول: مظاهر العقلانية الموضوعية في شعر الجنون عند "سعدون".

– الفصل الثاني: مظاهر العقلانية الذاتية في شعر الجنون عند "سعدون".

– وتفاوت الفصلان طولاً وقصرًا؛ فهذا ما فرضه البيان والإيضاح لما جاء في كليهما.

ثم جاءت النتائج، وفي النهاية جاء ثبتٌ بالمصادر والمراجع الواردة في البحث.

المبحث الأول: "سعدون": حياته وشعره:

هو أبو عطاء سعيد المجنون الملقب بـ (سعدون المجنون)، فاسمه سَعِيد أو سُعَيد، وكنيته (أبو عطاء)، أما المجنون فإنه لقب لحق به من أهل البصرة؛ فقد كان يأتي أفعالاً غريبة لا تستقيم مع العقل أحياناً، ولا تُعلَمُ سنةُ ميلاده تحديداً، ولكنه توفي سنة (٢٤٥هـ)، وقيل في (٢٥٠هـ)، ولا يلتفت القدماء كثيراً إلى حياته فقد رصدوا فقط تنقلاته، واهتموا بها؛ فقد كانت بين الكوفة وبغداد ومصر ليعظ الناس ويذكرهم بالآخرة ويخوفهم منها[١]، وكان من عقلاء المجانين وحكمائهم له أخبار ملاح وكلام سديد ونظم ونثر يستحسن، وطَوَّفَ البلاد ودُوِّنَت أخباره، واستقدمه المتوكل العباسي وسمع كلامه[٢]، وكان "سعدون" قد التقى بمالك بن دينار البصري، وصاحَبَ ذا النون المصري المتوفي سنة (٢٤٥هـ)، فكان لا يجاور إلا العلماء والأتقياء.

ولا شك أن "سعدون" إنما جُنَّ ليصل إلى الحب الذي لا تصل العقولُ العادية إليه؛ إنه حبُ الذات الإلهية التي لا تدركها الأعين ولكن تدركها العقول والقلوب، فالقلوب وحدها، فقط، هي التي تصل إليه، ف"سعدون" كانت له صلتُهُ الخاصةُ بـ(الله) سبحانه وتعالى، إنه من أهل الحب الإلهي، ذلكم الحب الذي لا يعرف كنهه إلا من حاور(الله) تعالى بأسلوب عرفاني لا يصل إليه ولا يعرفه إلا أهل العرفان والصالحين من الناس، إنه من أهل الأولياء، ولِمَ لا، وهو الذي كان يرشد الخلفاء والأمراء، وكان عابدًا زاهدًا عظيم الشأن كثير السياحة والانقطاع في الفلوات، وهو من أقران ذي النون المصري[٣]، وقد ذكر (ذو النون) أنه رأى (سعدون) في مقبرة البصرة في يومٍ حارٍ وهو يناجي ربه، ويقول له بصوتٍ عالٍ: أحدٌ أحدٌ، فسلم عليه فرَدَّ، فقال له: بحق من ناجيته ألا وقفت، فوقف، وقال له: قُل وأوجز، قلت أوصني بوصيةٍ، أو ادع لي بدعوة[٤]؛ فقد أُثِر عنه أنه كان مستجاب الدعوة، لما تمتع به من قلب صاف يصله بـ (الله) سبحانه مباشرة.

وكلما توغل (سعدون) في الحب الإلهي والزهد عمل ذلك على إعراضه عن الدنيا وتولية وجهه شطر الزهد والتفكر في أحوالها المتقلبة، تماما كتقلب جنبات عقله بين العقلانية والجنون، وقد قيل إن عقله قد جَفَّ لانصرافه عن لذة الأكل والشرب؛ فـ" قد ذكر الفتح بن شخرف أنه كان من المحبين (لله) سبحانه، صام ستين سنة فجف دماغه فسماه الناس مجنوناً"(٥)، ومن يصل لهذه المرحلة المتقدمة من المعرفة (لله) سبحانه لا يُعقَل أن يكون في منأى عن عقل واعٍ مدرك يربط بين الأمور ويعرف بواطنها.

وقد كان (سعدون) معاصراً لخلفاء عِظام كـ(المأمون)، و(هارون الرشيد)، و(المتوكل) وعمل على وعظهم وإسداء النصح لهم(٦)، وكان مقربا لهم، ولا سيما (المأمون)؛ فقد استقدمه واستمع إلى كلامه(٧)، وعُرف عن (سعدون) أنه كان محبًّاً للعلماء وملازمتهم والاقتران بهم، لا سيما النجباء منهم، فقد كان ملازما بقوة ل(ذي النون المصري)، وقال عنه ذو النون: رأيته في مقبرة البصرة في يومٍ حارٍّ وهو يناجي ربه....(٨).

وقد كان يحيا حياة خاصة؛ فكان يحيا حياةً داخل نفسه متقوقعًا على حبه الدفين (لله) سبحانه وتعالى، وقد أكد ذلك (الفضل بن عياض) حين قال: خرجت حاجاً، فبينما أنا أسير إذا أنا (بسعدون) المجنون مارًّا بالبادية وحده، فقلت له: سعدون؟ إلى أين؟ فقال: إلى (الله) أطلب قربه وأشكو إليه بُعْدَهُ(٩)، وأنى يكون بُعْدٌ بين (سعدون) وخالقه؟ وهو الذي يهيم بحبه على وجهه في الفلوات والفيافي، إنه العتاب بين المحبين، وقد اتصف بتعلقه الشديد ب(الخالق) سبحانه وتعالى، فكان لسانُهُ يلهج كثيرًا بالدعاء والابتهال له (سبحانه) والتضرع إليه والذوبان في كنفه الحانية، فقد ذكر (خالد بن منصور القشيري) أنه قدم عليه (سعدون) المجنون، فسمعه يقول في دعائه: لك خشعت قلوب العارفين وإليك طمحت آمال الراجِينَ(١٠)، ولا تخفى كراماته، وما كان يأتي به من أمور تدلل بقوة على صلته بـ(الله) سبحانه.

وتكثر تنقلاتُ (سعدون) ورحلاته ولا تخفى؛ فقد كان سياحًا لهجًا بالقول، وكان كلامه بمثابة الألغاز لا يصل لمعانيها إلا من امتلك قريحة قوية، وبصيرة نافذة، حتى إنه حين كان قائمًا ب(الفسطاط) في حلقة (ذي النون المصري) سُمِع وهو يقول: يا ذا النون متى يكون القلب أميراً بعد أن كان أسيرًا؟.

فقال ذو النون:

إذا اطَّلع الخبيرُ على الضمير //// ولم يُرَ في الضمير سوى الخبيرِ

قال: فصرخ (سعدون) وخَرَّ مغشيًّاً عليه، ثم أفاق وقال:

ولا خير في شكوى إلى غير مشتكي //// ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبرُ

ثم قال:.... وإن من القلوب قلوباً تستغفر الله قبل أن تذيب، قال: نعم نُبِّأتُ قبل أن تطيع، أولئك قوم أشرقت قلوبهم بضياء روح اليقين[١١]، فهو يجعل من القرب (لله) سبحانه رفعة للقلب وسمواً للعقل والجسد، وهذه أمور لم تكن لتحضر في نفس غير عاقلة أبصرت الطريق الصحيح للفوز.

صفاته:

(أ) حبه الإلهي:

كان (سعدون) عاقلاً في كلامه، وهذا أمر ينافي ما لقبوه به (المجنون)؛ فلم يكن فاقداً لعقله كغيره من المجانين المعروفين لعصره، إنما هو من عقلاء المجانين ومجانين العقلاء" ...الذين يتظاهرون بالعقل وهم في سفههم وسوء تصرفهم أولى أن يكونوا في عداد المجانين، وهؤلاء لا ترتاح إليهم النفس؛ لأنهم لا يثيرون شفقة ولا إعجابًا، وإنما يثيرون سخطًا ونفورًا، وهذا مثار ألم لا لذة[١٢]، ولهذا فمن يطالع حياة (سعدون)، وكيف كان فيها، وما أُثِرَ عنه من شعر وحِكم يعتقد تماماً في عقلانيته، وأنه من عقلاء المجانين، وقد عبر أحد عقلاء المجانين عن هذا تلميحًا حين قال عن

المجانين غير العقلاء أو مجانين العقلاء:" كيف وهم لا يحصون!، فإن شئتم عددتُ لكم العقلاء"[١٣]، فهو من عقلاء المجانين، وليس من مجانين العقلاء.

إن العقل والجنون يعدان أمرين نسبيينِ في هذه الحياة، لذا فإن رأى الناس (سعدون) مجنوناً فإن شعره، وما كان عليه كلامُهُ، وما سارت عليه حياته كلها أمورٌ تدل على عاقل في ثوب مجنون أصابه الجنون بالوصول للعقلانية التي هي ملاذ الإنسان في دنياه، وسلم النجاة له من شرورها وآثامها، لذا فالجنون يكون أحيانًا ملاذًا آمنًا، " فكل إنسان فيه كِميَّةٌ من عقل وكمية من جنون ... ويكاد يتساوى عقلاء المجانين بمجانين العقلاء"[١٤]، ولذا فإن (سعدون) كان غارقًا في حبه للآخرة، زاهدًا في دنياه التي طالما أصابت المنصرفين إليها والمتطلعين لها بالجنون، أما هو فانصرف عنها وزهد فيها فامتلك الحكمةَ والمعرفةَ الحقَّةَ.

لقد ذابت نفسُ (سعدون) وانصهرت وتجمعت أجزاؤها مجددًا في نقطة التقاءٍ واحدة هي نقطة حب جارف (لله) سبحانه وتعالى بلا حدود، لا يتقيد بالزمان والمكان، فكافأه (الله) بأن ألهمه الحكمةَ والموعظةَ والوصول إلى الحقيقة بل عين اليقين، إنها الحقيقةُ الغائبةُ عن الكثير، لهذا فانقطاعه عن الدنيا ما هو إلا انقطاع عن الباطل والرغبة في التماس الطريق الأصوب، طريق الحق والمعرفة الصحيحة والتي تهدي صاحبها الفوز والفلاح، وقد شهدت كتب الأولين على حكمته التي اكتسبها نتيجة لهذا القرب والحب الإلهيينِ، فقد استسقاه قومه، وهناك قصة معروفة في ذلك ذكرها (النيسابوري) وغيره تفيد بأنه حين حدث ذلك رفع رأسه إلى السماء وقال: أقسمت عليك ألا سقيتنا الغيث ثم أنشأ شعرًا، حتى اترجت السماء بشآبيب كأفواه القِرَب، قلت: زدني، قال: ليس ذا الكيل من ذاك البيدر[١٥]، وهذه تعد من كراماته التي أفرد لها الذين تحدثوا عن حياته كثيراً في كتبهم، وما هذا بحادث إلا لمن تعلق قلبه وامتلأ بحب لا حدَّ لوصفه أو تقديره.

(ب) زهده وحكمته:

كَثُرَ ذكرُ الموت والدعوة للتصوف وإعلاء قيم الصفات الإنسانية، كالإخاء، والتسامح، والتغاضي عن الأخطاء، وهذه الأمور كانت وقت عصر (سعدون) قد أَفَلَتْ شمسُها بعض الشيء في مجتمعه آنذاك، فكانت هذه القيمُ غيرَ معتادة بقوة، ويُنظر إليها بغرابة ودهشة، وأن صاحبَها به مسٌّ أو جنون أحياناً لذا اتهمه الناس بالجنون، وقد رفض (سعدون) هذه الصفة وهذا البهتان عندما خاطبه بعض الناس وذكرهم بأنه حكيمٌ وليس مجنوناً، فقد أجابهم:" أنا مجنون الجوارح ولست بمجنون القلب، ثم ولَّى هاربًا"[١٦]، وهذا ما تؤكده آثاره في الشعر والحكمة التي أُثِرَت عنه، إنه مُصاب؛ فلسان الزهد ينطق عن هذا الانصراف والزهد في الدنيا الذي رآه البعضُ جنونًا، ومن يفعل هذا فقد أبصر الحقيقةَ الغائبةَ، إنها الابتعاد عن المُهلكات من الأشياء، ومن أعرض عن الحياة فإنه بالتأكيد يمتلك عقلًا واعياً وبصيرة نافذة" وهذه أمور كلها مشروطة بالعقل؛ فالجنون مضاد للعقل والتصديق والمعرفة واليقين والهدى والثناء، وإنما يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات"[١٧]، ويكفى (سعدون) عقلاً أن انتهى إلى مراده وسبب وجوده، إنها معرفة (الله) سبحانه، وعبادته والتعلق به.

ولأن (سعدون) كان محبًّاً (لله) سبحانه، شأنه شأن المهتدين لصراطه المستقيم، فقد كان دائم البكاء، كثيره، ولا ينفك الندم يفارقه على ما انقضى من عمره، وهذه إحدى سمات العارفين، وقد أكد هذا (مالك بن دينار) فقد قال لـ(سعدون):" قيل ما يبكيك، قال ما بكيت حرصًا على الدنيا ولا جزعًا من الموت، ولكن بكيت ليوم مضى من عمري، ولم يحسن فيه عملي، أبكاني والله قلة الزاد وبعد المفازة والعقبة الكؤود، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار"[١٨]، ويورد (مالك) في قصته معه سبب تسمية (سعدون) بالمجنون، وسبب هذا الجنون، حين أجاب سعدون عن هذا بقوله:" وأنت اغتررت بما اغتر به بنو الدنيا، يزعم الناس أنى مجنون، وما بي جُنَّةٌ، ولكن حب مولاي قد خالط أحشائي وجرى بين لحمي ودمي وعظامي، فأنا والله من حبه

مشغول"[١٩]، فاجتماع الحب الإلهي والزهد في (سعدون) جعلاه لا يرى شيئاً يستحق التفكير فيه والاتصال بحباله القوية سوى طريق (الله)، سبحانه وتعالى، فعمل هذا على انقطاعه الكامل عن الناس ودنياهم الزائلة الفانية.

ومن صفاته أنه كان دائم النظر إلى السماء يناجي ربه كثيرًا بكلام لا يفهمه ولا يسمعه الناس من حوله، وحين سُأِل ليستسقي لقومه في الواقعة التي خلدتها كتبُ الأقدمين ناجى ربه (سبحانه) " فسُأِلَ عن الكلام الذي تكلم به فقال: إليكم عني إنما هي قلوب حَنَّت فرَنتْ فعاينت فعلمت وعملت وعلى ربها توكلت"، وأعرض ثم أنشأ يقول: أعرض عن الهجران والتمادي ///// وارحل لمولى منعم جواد[٢٠].

(ج) شجاعته ونقده لعصره:

كان (سعدون) قوياً في الحق لا يخشى الولاة ولا الحكام، فقد كان يَعِظُ الولاة ولا يخشاهم، فقد ثبت عنه أن (هارون الرشيد) حين فُرِشَ له وفُرشت له من العراق للحرم لبودٌ مرعزيٌّ، وكان عادته أن يحج راجلاً فاعترض موكبه (سعدونُ) وأنشد أبياتًا شعرية منها:

هب الدنيا تواتيكا ///// أليس الموتُ يأتيكا

وسمع الرشيد هذه الأبيات فغشي عليه حتى فاتته صلواتٌ ثلاثٌ[٢١]، وليست تلك القصة فقط ما يدلل على شجاعته، بل هناك أيضًا دعوته لاجتناب الظلم للرعية من جانب الحكام والولاة، فهو ينصح لأحد الولاة ويذكره بالهلاك والعاقبة الوخيمة للظلم حين نجده يقول له: " أما بعد يا هذا فإنك إن لم تستحِ من نفسك فاستحي من ربك، ولا يغرنك بسطة عليك فإنه إن عافصَكَ أهلكك وهتكت، ثم كتب عنوانه" إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا"[٢٢]، وهذا الإيمان القوي وعدم الرهبة التي تكونت في قلبه لم تكن لتأتيه إن لم يكن في سعةٍ من العقلانية والقدرة على كيل الموضوعات بميزان المنطق والعقل.

وقد كتب (سعدون) أيضًا لبعض الخلفاء ينذرهم ويتوعد من يظلم منهم بخسران مبين وعاقبة وخيمة من (الله) سبحانه، فها هو يقول لأحد الخلفاء:" أما بعد، فإن الله أخذ على السموات والأرض والجبال عهدًا فأودعه إياهن، فأما السموات فتناثرت نجومها... وأنت في ضعف حيلتك وباردة خواطرك وعجزك قد كُلِّفتَ الأمانة فما تحرك عليك عُضوٌ ولا تزعزع منك مفصلٌ ، وقد ركنت بجانب مخادعك وجعلت الدنيا نزهة بطالتك، فانتبه من رقدة الوسن قبل أن يكتنفك الحزن والسلام"[٢٣]، فأي عقل هذا الذي يدعي البعض ذهابه، وقد أرسى قواعد العدل، وقارن بينها وبين الظلم في صورة تحتكم إلى رؤية ثاقبة مرئية التفاصيل في أحداثها.

ولا تخفى حكايته الطريفة مع (جعفر) المتوكل العباسي حين أرسل إليه (سعدون) يذكره بعدم جدوى نَسبه له في الحساب يوم الدين، حين قال له:" يا أخي، أما بعد، فإنك قد طمعت في الحياة ونسيت تراصف الأقدام وتطاير الصحف في الشمائل والأيمان ، فاذكر حسرتك عند انكشاف الغطاء"[٢٤]، ونراه يذكره بقراءة القرآن ويحتج بآية عظيمة تنفي جدوى النسب في الشفاعة لصاحبها يوم القيامة، ويقول للمتوكل: اقرأ:" فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون"[٢٥]، بل إن هناك رسائلَ عديدة أرسلها (سعدون) للولاة والخلفاء يذكرهم بأمور دينهم، وما يجب عليهم فعلُه، لا سيما لكسب حب الرعية ونشر السلام والأمن الداخليين في ربوع بلدانهم[٢٦]، إنه على دراية وعلم كبيرينِ بما يؤسس للسلم الاجتماعي، وما هذا بفعل مجنون قليلاً ما يعقل.

وكان (سعدون) لا يهاب الحكام ولا يأبه لسلطانهم، فها هو ينتقد (المتوكل) العباسي ويذكره بظلمه للعباد، وما جره على البلاد من دمار وخراب وويلات، بل إنه يذكره بجبروته واستعلائه على الضعفاء من رعيته، وأن في ذلك خيانة للأمانة التي أوكلها (الله) سبحانه إليه، بل يصل الأمر معه إلى وصفه (للمتوكل) بأنه سارق لأقوات الضعفاء، ويأخذه ليوم القيامة وما سوف يراه جراء أفعاله النكراء هذه، وما قاله للمتوكل في هذا الشأن هو جرأة محمودة معبرة باقتدارعن رجل يعرف حقوق البلدان على ولاتها،

وأن الوالي ليس إلا فردا أوكله (الله) لهذه المهمة الثقيلة، وأنه لا بد أن يتذكر أنه مسئول عنهم وعن أحوالهم أمام (الله) سبحانه، فنرى (النيسابوري) في (عقلاء مجانينه) يسرد ما قاله (سعدون) للمتوكل حين قال له:" أنت المتوكل، قال: نعم، فلم سميتَ بالمتوكل ولم تَتَسَمَّ بالمتواضع؟ ثم قال: السلام عليك أيها الشارب بكأس التجبر والمتكيء على نمارق البلوى! .... فستعلم وستقرأ ما قد أُحصي عليك بالتحقيق"[٢٧]، فما كان من المتوكل إلا أن اغتاظ واستشاط غضبًا من (سعدون) وزج به في غياهب السجون، إلا أنه أطلق قيده، ثم أعاد سجنه مرة أخرى، وحاوره محاورة في غاية الحجة والإقناع حين حاول أن يجعله يُقِرَّ بأن القرآن مخلوق....، وفي النهاية أمر له بجائزة فردَّها (سعدون)، وقال: حسبي (الله) الذي جعل خزائن عطائه مفتوحة لمؤمليه، وحسبي من جعل مفاتيحها صحة الطمع فيه[٢٨]، وهذا الحديث وتلك المحاورة يدلان على عقل واع محاجج حاذ القدرة على الرد والإفحام، وما هذا بغريب على (سعدون)، وهذا ما جعل (المتوكل) يشهد له ويقر بقوة بعقلانيته حين قال له:" أحسنت، بارك (الله) فيك، من زعم أنك مجنون؟"[٢٩]، فما كان أجرأه في الحق! ولا سيما مع الظالمين، حكامًا كانوا أم رعية.

(د) تدينه القوي، ورغبته في الآخرة:

كان (سعدون) على دراية تامة ببواطن الأمور وظواهرها، لذا التزم طريقَ النجاة في حياته، وهو البعد عن تلك الأبنية الهشة التي تنشئها الدنيا وتزينها لمن يبغي قربًا منها، وله في محاوراته مع (المتوكل) ما يثبت هذا ويؤكده، بل إن هذا ليذكه في شعره الذي نظمه، وإن كان قليلاً[٣٠]. وأيضاً كان قلبه معلقاً بحب (الله) سبحانه، ويستمد حياته من التمسك بعراه القوية المتينة، وهو يعبر عن ذلك بالضياء الذي انعكس عليه وأنار حياته نتيجة لتلك المعرفة الإلهية التي ملكت شغاف قلبه، وتغلغلت في ثنايا عقله، فيقول:" إن من القلوب قلوبًا تستغفر (الله) قبل أن تذيب.....نعم تلك قلوب تثاب قبل أن تُطيع، أولئك أقوام أشرقت قلوبهم بضياء روح اليقين، فهم قد فطموا

النفوس من روح الشهوات..."[٣١]، تلك التي لا تكسب صاحبها سوى الهلاك والخسران.

وفي الآخرة، وما يحدث فيها، كان (سعدون) دائم التفكير في ذلك الأمر الجَلَل، فكان يرغب نفسه ومن حوله فيها، ويزهدهم في الدنيا، فكان" إذا هاج صعد السطح ونادى بالليل بصوت رفيع: يا نيام انتبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة؛ فإن الموت يأتيكم بغتة"[٣٢]، وكان ورعًا كثير البكاء، ودائما ما يظهر الندم على ما فات ومضى، وكان يقول:" البكاء للقدوم على (الله) أولى من البكاء على الأبدان، فإن يك عندها خيرٌ فخيرها عند (الله) أكبر من بلاها أو شر فشرها عند ربها شر من بلاها في القبور....."[٣٣]، ونجده كثير الحوار مع النساك والزُّهاد، أمثال: ذي النون المصري، ومالك بن دينار، وكان دومًا يعبر عن فكرٍ مستنير يبلور نظرة ثاقبة حول الحياة وتقلباتها، ونراه يكتب عن شوقه (لله) سبحانه قائلاً لأحد أصدقائه:" أما بعد يا أخي جعلنا (الله) وإياك من الذين غاصوا في بحر الشوق فاستخرجوا صدف اللطف فسقط عنهم الأذى والأسف، ثم كتب عنوانه من تعب راح ومن راح استراح[٣٤]، وما الراحة إلا في جوار (الله)؛ حيث لا تعب ولا نصب.

المبحث الثاني: الجنون والعقلانية: الأصول، والتلاقي، والتجافي:

(أ) الجنون بين الخفق والإبداع:

الجنون لغةً:

الجنون مصدر للفعل (جنن)؛ وجن الشيء يجنه جنًّا: أي ستره، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، ومنه سمي الجنين، وجنَّ الليل وجنونه وجنانه: شدته وظلمته وادِّلهامه، وقيل اختلاط ظلامه؛ لأن ذلك كل ساتر[٣٥]، والجُنُن هو الجنون، والمجنون من جنَّ جَنًّا وجنونًا وتجنن عليه: أرى من نفسه أنه مجنون، وأجَنَّه الله فهو مجنون على غير قياس... وإنما هو من نقصان العقل[٣٦]، فكل الشروح حول المادة ومصادرها إذن تفيد الاستتار والخفاء والبعد عن الرؤية، إنه انعدام الظهور والوضوح.

تاريخ الجنون: نبذة موجزة:

قديم هو الجنون نشأةً، وقديمًا كان لا يعني عدم امتلاك العقل، أو ذهابه، بل كان يعني فعل الشيء بصورة لا تبدو معقولة، أو الهوس بفعل شيء ما دون مراعاة لأصول تمنع فعله أو قل كان له مفهوم واسع؛ فكلنا عرضة لنوباتٍ من الجنون،" فإننا جميعاً مصابون بالجنون، وربما تكون هذه إجابة الحكماء على ما يتردد من قول مأثور يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر، إذا أردت أن ترى مجنونًا، فما عليك إلا النظر إلى نفسك في المرآة"[٣٧]، فانعكاس الشيء إنما ينبيء عن الوجه الآخر الذي يبدو مختبئًا خلف وجهه الذي يعرفه.

والجنونُ لا يُنتقص به الإنسانُ، وهناك من الشعراء من أُطلق عليه لقب (المجنون) أو سُمِّي به، وكان يشار إليه بالبنان، بل إن ذلك كان سبباً قويًّاً في شهرته ومعرفته عبر التاريخ العربي، ولا سيما الشعري فيه، ومن ذلك نجد (مجنون ليلى)، وهو (قيس بن الملوح)[٣٨]، ولا يُخفى أثره أو شعره على أحد، والمعنى اللغوي عند التمعن

فيه نجده يشير إلى الاستتار وليس الغياب الكلي، فهناك إذن بقايا حيةٌ، تماماً كالنيران الكامنة القابعة التي بين ثنايا الرماد والتي يمكن أن تضحى نارًا كبيرة وواضحة فجأة، واستتار العقل له أسبابه المؤقتة أحيانًا. وكان هناك آخرون سوى قيس استُتِر عقلُهُم وظهر وجه الجنون مكانه، ومنهم: النمر بن تولب، وعروة بن حزام العذري، وقيس بن ذريح، وزهير بن جناب الكلبي، والمخبل السعدي، وأبو بكر الشبلي المعروف بـ (دلف بن جحدر)، وخالد بن يزيد الكاتب، وغيرهم[٣٩]، وهم على ما كانوا عليه من جنونٍ لم يفارقوا عقولهم.

والجنون صفةٌ إما موروثة، لا دخل للمرء فيها، وإما عرضٌ طاريء نتج لمرور صاحبه بموقف أو حدث ما جعل عقله يغوص في متاهات الجنون ولا يستطيع لسطح العقلانية عودةً فاختلت مقاييس العقلانية لديه، فمجانين الشعراء قد مروا بما أخلَّ بموازين الأمور لديهم، وقد أشار النيسابوري في (عقلاء مجانينه) لهذا، فقال: " شاب (الله) صفات أهل الدنيا بأضدادها فشاب عقلهم بالجنون، فلا يخلو العاقل فيها من ضرب من الجنون"[٤٠]، ومما يعضد هذا الأمر بقوة، أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين مرَّ على رجل فقال بعض القوم: هذا مجنون، فقال (رسول الله): هذا مُصابٌ إنما المجنون على معصية (الله) تعالى"[٤١]، فالجنون الحقيقي هو البعد عن منهج (الله) سبحانه وتعالى، وهذا هو الفقدان الحقيقي للعقل، والجنون بعينه.

ونظرةٌ إلى الإرث الثقافي للمجانين من الشعراء تصيب القاريء بالذهول جراء ما يجد من شاعرية وبناء شعري متسق، قوية لبناته، وحكمة تطل من وراء أبياتهم تنطق بلسان عَرَّكَتْهُ الأيامُ والسنين، فنجد الإجادة والتفنن في الشعر بل والشعر القوي الذي لا يقدر على نظمه العديد من عقلاء الشعراء أنفسهم، وليس الناس عامة من العقلاء منهم، والمروق من سقف العقلانية لم يكن ليُوجد في شعرهم، لذا فكم هو جائر أن يُحكَم عليهم بالجنون!، فلا يوجد فقدانٌ لحكمة أو شاعرية في شعرهم الذي وصل لأيدينا، بل إن النقاء والصفاء النفسي كانا عنوانين لأشعارهم، ولكن ربما كانت ظروفُهم

المعيشية أو النفسية هي السبب ليوزعَ الآخرون عليهم اتهامات الجنون، فكم هي قاسية الحياة أحياناً!، وأوقات تضحى معقدة لا مكان ليحيا فيها من تمتع بصفاء القلب ونقاء السريرة، لذا فالانعزالُ هو الحل الأمثل آنذاك، والتقوقع هو الوسيلة المثلى لرفض ما يحدث وعدم الرغبة في الانخراط في هذا الأمر السيء، وليس هناك بأصدق من كتاب (الله) عز وجل حين يأتي الرسل بما لا يتوافق مع هوى المُنذَرِين من معتقدات خاطئة يظنونها تنفعهم من دون (الله) سبحانه، فينعتون هؤلاء الرسل المكرمين بالجنون ونجد ذلك في قوله:" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ "[٤٢]، لذا فالإيجاب في الأمور جميعها غالباً ما يصحبه النفي ممن لا يرون هذا الإيجاب، فمن كان ورعًا تقيًّا فهو ليس مجنونًا؛ بل هو مصاب، وهذا ما كان عليه (سعدون).

ولا تعدم كلمة المجنون اتفاقًا في حقولها التي تشير إليها عند المهتمين بهذا الحقل المتشعب المعنى؛ فهي تعني الأحمق، والأخرق، والمجذوب، والموسوس، والمصاب، والمعتوه، وغيرها[٤٣]، وبالرجوع لمعانيها جميعا وحقولها نجدها لا تعني (في أغلبها) ولا تشير إلى فقدان العقل منذ الصغر بل ترجع إلى سبب ما، فهناك من فقده خوفًا من (الله) سبحانه، وهناك من ادَّعى ذلك وهو صحيح العقل سليمه، ومن أراد الجنون لينال غِنَىً يصيبه أو ثروة يريدها، وهناك من يفعل ذلك للنجاة من بلاء آفةٍ ما[٤٤]، فالجنون إذن ليس سُبَّةً في جبين من يصاب به، إنه لا ينقص من قدره شيئًا، إنما المجنون من كان فاقدًا لعقله نتيجة أفكار خاطئة نَشَأ عليها، والجنون بتلك الأفكار الخاطئة غير المقبولة شرعًا ولا عُرفًا.

وتصعبُ بلورةُ الجنون في مصطلح محدد يجمع أسبابه ويصنف صفاته، ورغم تصنيف علمائنا العرب الأوائل في الجنون وحالاته، وبكثرة، إلا أننا نجده يختلط بأنواع أخرى كالحمق، والخلط، والخبل، والعُته، وغيرها من الصفات التي تقترب معها أو تبعد عنها في معانيها المشتقة منها[٤٥]، وفي القرآن الكريم وردت تلك اللفظة (الجنون) في مواضع عدَّة منها:" فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

الْآفِلِينَ"[٤٦]، وهي تعني الاستتار ومنها أتت كلمة (الجِنَّة)، وقوله:" وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا"[٤٧]، وقوله:" أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ"[٤٨]، وأيضاً في قوله:" وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ"[٤٩]، وغيرها من الآيات الكريمات، وكلها تدور في فلك عدم الظهور والخفاء، وذلك ما أخذ منه المعنى للجنون، وهو استتار العقل وخفائه عن الظهور والبيان.

وشاعرنا (سعدون) هنا تقاسم الحبُّ والجنونُ جسدَه، وألقيا به في أتون الزهد والانصراف عن الناس والدنيا وكان انقطاعه (لله) سبحانه سبباً رئيسًا في زهده وبعده عن مجتمعه، ومن فيه، ومن التعسف والظلم أن يُلحق (سعدون) بعقلاء المجانين؛ فهو لم يكن مجنوناً قط؛ إنه يبدع وينظم شعرًا ويعبر عما تجود به قريحته عليه، إنه مبدع إذن، وإن لم يلحق بركب الشعراء الكبار وينال مكانتهم، وهو ربما ارتكب بعض الأمور التي لا تستقيم مع العقل أحياناً، ولكن هذا لا يخرجه من زمرة العقلاء، فالحمقُ مثلاً نجد أن البعض قد ألحقه بالجنون، لا سيما قديمًا؛ وذلك لتداخل الحقلينِ الدِّلاليينِ لهما" فقد كان من الطبيعي أن نقرن الحمق بالجنون، وذلك أن حقليهما الدلاليينِ متداخلان آنًا متلابسان آونةً مثلما تدل على ذلك أصولُهما .... وقد وجدنا المؤلفين لا يكادون يفرقون بين الحمقى والمجانين ... فهم يعوضون بغير ارتياب هذا المفهوم بذاك"[٥٠]، فربما عدَّ البعضُ الحماقات التي أتى بها (سعدون) نوعًا من الجنون، وهذا أبعد ما يكون عن الصواب.

الجنون اصطلاحًا:

لا يأتي الجنون ليصف الإنسان بل له ولغيره يأتي صفةً معبرةً، فنجد أنه" يقال على النخلة أنها نخلة مجنونة إذا طالت وبسقت، والناقة المجنونة هي الناقة السريعة[٥١]، فالجنون حين يكون صفة لغير الإنسان، فإنه يأتي ليشير بقوة إلى الغاية

من استخدامه أو المأمول منه، وكأن الضد سمةٌ تتنقل بين الأمور جميعاً، ولأن الجنون ضد العقلانية والإنسان ضد الحيوان ، فهو في الحيوان يفيد الكثرة والزيادة والإفراط، أما في الإنسان فلا تعطي سوى النقص والاستتار والقلة لتفاعل العقل مع الأشياء، فيا عجبًا حتى الجنون الإنساني لا يتوافق مع الحيواني!

هذا وفي التراث العربي فإن الجنون يأتي مرادفًا للمعصية، وشاهد ذلك، ما أشار إليه الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) من كون المجنون من كان على معصية لربه وليس من فقد أهلية عقله[٥٢]، وهذا إن دلَّ فإنما دلالته على المعنى العميق والأكثر أهمية في الإنسان، مناط العقلانية الصحيحة أو الجنون المتحقق، إنها الروح فهي إن كانت عاقلة أصابت الصحيح من الأمور، وظهر نتاج ذلك قوياً مع الناس، ومن قبل مع الخالق(سبحانه)، وحينئذ سيصيب العقل مكانه الصحيح، وتحل الراحة الحقيقية، ويذهب ما يؤرق النفس أو ما يؤدي بها للجنون.

والجنونُ أحياناً صفةٌ مستحضرةٌ لدى الأديب حال كتابته عمله الأدبي، لذا فالشاعر يُطلق عليه مجنون أحياناً، ولا يخفى وصف المشركين للنبي (محمد) (صلى الله عليه وسلم) بالمجنون حين أتى إليهم بالرسالة وبالقرآن الكريم، فهم لم يعتادوا هذا التفوق عليهم فصاحةً وبلاغةً، بل إن البعض يعد العبقرية نوعًا من الجنون؛ كونها الإتيان بما يعد مخالفة للمألوف، أو ربما يكون جنونًا أحادي الجانب حين يتجه بصاحبه إلى الإبداع والابتكار وجريان الأمور على غير طبيعتها المعهودة، فالجنونُ عقلٌ يقبع داخل المخالف الظاهر منه.

إن الجنون إذن له شقان: إيجابي وسلبي، والإيجابي منه هو الإبداع والخروج عن مألوف الأشياء، شريطة عدم الإضرار بالعقل، لذا فالجنون الإيجابي هو ما يظهر شعرًا في بحثنا هذا، فنحن لا نقصد به هنا غياب العقل بل نريد الجنون الذي يعني الإبداع والإتيان بما يخالف المتوقع فينتقل بالقاريء إلى أفق غير عاديٍّ يجعله يتخطى

عوائق الزمان وحواجزه بل والمكان أيضًا، وَلِمَ لا؟ وهي التي تخلق له أجنحة بها يمكنه التحليق في سماء الأمور ليرى ما لا يراه العقلاء العاديين في حقائق الأمور، إنه صهر للاوعي مع رؤية ثاقبة مغايرة للأشياء فيأتي حينئذٍ العمل الأدبي في صورته المؤثرة الجميلة، فالجنون المعروف أبعد ما يكون هنا.

وجنون (سعدون) وخروجه هنا عن الواقع الذي كان يحيا فيه هو من ذلك النوع الإيجابي الذي يظنه الناس، دون تعمدٍ، جنوناً سلبياً، لكنه حقَّاً إيجابي خلاق؛ فما يأتي به شعرًا هو انعكاس لعقلانية مستترة خلف ثوب الجنون الظاهر، فهي تخرج القاريءَ من واقعه إلى عالم مغاير مدهش، حتى إذا ما نظر إلى واقعه مرة ثانية ذهب الجنون عنه، وكأنه يسأل: هل هذا الجنون فعلاً يأتي صاحبه بهذا؟

ولأن من يهذي بما يخالف الثابت وما جرت به العادة غالبًا ما يُطلق عليه مجنونٌ، إذن فالشعر هذيان منطقي، وكيف هذا؟ والعقل لا يقوم إلا بالجنون، ولا يطرق باب غرائب الأشياء إلا بمخالفته للواقع والمألوف، فالجنون أيضًا دعامةٌ تقي العقل التجلط والانسداد لتلافيف تفكيره وإتيانه الإبداع، فهي تجدده دائمًا ويحفظ لوعائه السيولة اللازمة، فالعقل يلجا للجنون أحيانًا ويستجير به أحيانًا أخرى، فالجنون عند (سعدون) هو برهانٌ على عقلانيته المتفردة دون مجانين الشعراء، والجنونُ حين الإبداع يكون المحرك الرئيسي له، والمؤكد الحقيقي لوجوده وتمكنه في قلب صاحبه، فإن" الأمر الملاحظ يوصف بالجنون كلما تجاوز الحدود المعتادة"(٥٣)، فالخروج عن الأمور المعروفة هو بناءٌ جديد لها، وعرضٌ لها في صورة أجمل وأشد تأثيرًا، وهذا ما يصنعه الجنونُ بالإبداع.

ويأتي الجنونُ أحياناً ليضحى فسادَ التخيل في انتقاء ما ينبغي أن يُؤْثَرَ حتى يتجه إلى إيثار غير المؤثر، فالفاسد من الجنون غرضه، ومن الأحمق سلوكه، إذ غرض الأحمق كغرض العاقل، ولا يعرف في أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل

الغرض، والجنون هو فساد الغرض، ولذلك يعرف في أول الأمر[٥٤]، وهو يكون بعيدًا عن العقلانية أو ما يؤدي إليها، إنه السير في طريق الفساد العقلاني؛ فالمجنون لا يختار ما لا ينبغي أن يختار، فيكون أصل اختياره فاسدًا[٥٥]، فهو ليس لعقله القيادُ أو التحكمُ ؛ إنه فاقد له فيخبط خبط عشواء.

والجنون يقبع في صورتين: الجيد، والسيء، والجيد منه تأتي منه الحكمة أحيانًا، ولهذا فقد ميز (أفلاطون) بين نوعين من الجنون:" جنون من أصل عادي وجنون من أصل إلهي، أي أن هناك نوعًا سيئًا، وهو الهوس الذي يصاحبه ولع جسدي، ونوع جيد ملهم سماوي"[٥٦]، فالجنونُ ليس سيئًا في كل الأحوال؛ فقد " أضاف الفلاسفةُ الإغريقُ معنى آخرَ للجنون فضلاً عن معناه المزدوج الذي قد يكون الخطيئة وهو الجنون الذي قد يكون خلاقًا"[٥٧]، والجنون روح تحلق في سماء اللامعقول فتأتي بما لا يستقيم مع العقل أو المنطق لكنها تسير به إلى الإبداع والتفرد العقليينِ، إنه الجنون المغرد عبر طائر الإبداع، يجعل صاحبه ملهماً لا سيما إن كان شاعرًا، فهو أداة لغته وملهمه القوي الذي يجعله ثائرًا على أنظمة المألوف من الأمور، " فالإنسان ليس بوسعه أن يكون ناظمًا للشِّعر دون جنون الإلهام الممنوح من ربَّات الفنون... لأن الشعر الذي ينظمه إنسان متزن ورابط الجأش دائمًا ما يتفوق عليه ذلك والشعر الذي يقرضه إنسان ملهم (بمعنى إنسان خاضع لسيطرة روح) أما الجماهير التي لا تدرك أن هذا الإنسان مُلهَم فهي تقول عنه: إنه مجنون"[٥٨]، وما هو كذلك بل إنها هي الفاقدة لعقلها المنصف فلا تدري أي وجهة توليها وأي طريق تأخذه.

إن الجنونَ سياجٌ قوي يحيط بالعقل ولا يمنعه أن ينتفض ليبدع، فالإبداع جنونٌ، ولكنه نوع لا يعرفه إلا أصحابه، فالجنونُ أحيانًا هو لغةُ العقل التي آلتها الإبداعُ، والشعراء أحيانًا هم أهلُ الجنون؛ فهم ينفصلون عن عالمهم المحيطِ بهم حين يُشعِرون، " فالجنون محاطٌ بالعقل الذي يحكم عليه أنه يخضع لمبدأ السبب ويصبح "صورة للعقل" وذلك أن حقيقةَ الجنون لا تشكل الآن سوى شيءٍ واحد مع انتصار العقل

والتحكم فيه: إن حقيقة الجنون أن يكون موقعه داخل العقل، أن يكون إحدى صوره، أن يكون قوة وحاجة آنية لإثبات وجوده"[٥٩]، فإذا ما تحرك هذا الجنون في ثنايا العقل جعله يأتي بما لا يألفه صاحبه ولا يتوقعه من حوله.

وعدم بناء الكلام ونظمه على شاكلة واحدة يخلق جنونًا فيه؛ فيكون أحيانًا موافقًا للمعهود وتارة شاذًّاً عنه، وقد كان هذا الأمرُ قديمًا، ولا زال، فقد وُصِف الصاحبُ بن عباد بأنه كان" مجنون الكلام تارة تبدو لك منه بلاغة قُس وتارة يلقاك بعَيٍّ باقل"[٦٠]، ولا يخفى (باقل)[٦١]، وكيف كان غبيًا! رغم كونه غير مجنون، فكلام (الصاحب بن عباد) إذن يسمو تارة للبلاغة التي تتميز بالتفرد والتميز، وأخرى نجده ينحدر للركاكة والضعف وعدم الفصاحة، إنها بلاغةٌ مذبذبةٌ لا تقر عينًا؛ إن الجنونَ أصاب البلاغةَ (جنون مخالفة المعهود من الكلام).

وبعضُ المجانين يظهر جنونُهم ويطفو على سطح عقلهم فينغمر العقلُ ويركُدُ، وأحيانًا يكون كامنًا مستترًا حتى يأتي ما يحييه ويبعثه مرة أخرى من رقاده، إنه الجنونُ يضع أقنعة العقل الخادعة ويكمن خلفها مستترًا، إنه" لا يكشف سوى عن الوجه الآخر للأشياء وعن جوانبها المظلمة وعن التناقض المباشر لحقيقتها"[٦٢]، فالعاقلُ أحيانًا يأتي بأفعال تخالف الجنونَ، أي أنها عقلانيةٌ تمامًا، ولكنها تحوي في باطنها جنوناً ينافي العقلانية الحقةَ، أي في ظاهرها العقلُ وفي باطنها أو من قِبَلِها الجنون، وهذا ما يظهر جلياً في الجري وراء الهلاك مع ضرورة الابتعاد عنه بغية النجاة، وما الهلاك هنا إلا الحياة وملذاتها الفانية، فالجنون الخفيُّ إذن رهينٌ النوايا والخفايا، إنه حبيس النفس ونوازعها المكبوتة، لا يظهر لسطح العقل، أما الظاهر من الجنون فعنوانه الأفعال المرئيةُ، ولذا فلا عجب أن تأتي الحكمةُ وتتبع ممن لا يُعتَقَدُ بعقلانيته؛ فلا أحدٌ يسلم من الجنون؛ فهو إما خفي أو جلي، فالضدانِ يحملهما الإنسانُ داخله ولكن يطغى أحدُهُما على الآخر تبعاً لمناسبة تجبره على الخفاء أو التجلي، وإلا" فكيف يمكن التمييز داخل فعل بالغ الحكمة قام به مجنونٌ وبين أبشع أشكال الجنون الصادرة عن

رجل يُنظَرُ إليه عادةً على أنه حكيمٌ وسَوِيٌّ"[٦٣]، لذا تُأخَذُ الحكمةُ من أفواه المجانين أحياناً كما قيل.

والأشياءُ التي تُظهِرُ جنونًا أو تبدو مليئة بالجنون هي أمور تُرَى بعين خاصة، عينٌ لا يرى بها الآخرون العاديون لعدم وجودها بهم، وإن كانوا عقلاءَ، ولذا فهي" من أخطر أدوات العقل لأنها الأكثر حدة، فلا وجود لعقل قوي لا يغامر ضمن الجنون من أجل الوصول إلى عمله، ولا وجود لذهن كبير لا يمتزج معه الجنون .... وبهذا المعنى فقد انتابت الحكماءَ أو أكثر الشعراء شجاعةً موجاتُ غضبٍ أخرجتهم أحيانًا عن طورهم"[٦٤]، فالجنون هو القوةُ المحركة للعقل أحيانًا؛ فهي تجعله يكتسب شجاعة وتقبلاً للإتيان بما يخالف الأمور المعروفة عند الآخرين، فلا غِنى للعقل عن الجنون، وليس هناك بديلٌ بأفضلَ منه له ليخوضَ غُمارَ الصعابِ من الأمور،" فإن لحظةَ الجنون لحظةٌ قاسية ولكنها أساسية في إواليات اشتغال العقل، فمن خلاله يتجلى العقل وينتصر، إن الجنون بالنسبة للعقل ليس سوى قوته الحية والسرِّية"[٦٥]، فالجنون إذن يستعار للمبدع حين يستتر صوتُ عقله خلفَ مشاعره المتأججة بالحرمان، والتي لا تلجمه ولا تستجيب له، إنها العصيانُ لأوامر العقلانية في وجود العقل، وعدم الانصياع لأوامره ولمنطقه المعهود أو المألوف.

إذن فالجنون يُطلقُ على الشخص بالنظر إلى أسلوبه وما يأتي به أو حديثه أو من ينهج نهجًا يخالف بيئته ومجتمعه، فيطلق عليه (المجنون)، وهذا ليس لفقدانه العقل بل لحديثه غير العاقل، ولذا نجد للجنون تعريفًا عند اليونسي(ت ٦٥١هـ) فهو: " آفة تنال العقل فتزيله"[٦٦]، والآفات تتعدد وتتنوع فمنها: الجسدية، والعقلية، والحياتية، وغير ذلك، وأحياناً يضحى الجنونُ مرضًا قلبيًّاً، ولهذا سمي المجنون مجنونًا" لأنه قد أطبق على قلبه"[٦٧] فلا يدري أيَّ وجهةٍ يوليها ليحيا بعقلانية ويعلو صوتُ العقل عنده.

وعندما يصبح الإنسان مجنونًا فإنه لا يفقد العقل، ولكن قد يحدث أحيانًا أن نحمله إلى آخر نتائجه التي تجعله يتحاشى الواقع وعبثيته، لذا فإنه" ليس المجنون من

فقد عقله! المجنون من فقد كل شيء ماعدا العقل، فهناك حاجة تفرض اللا معقول واللا منطقي، لأنه" حتى الشخص الأكثر تعقلاً يحتاج من حين لآخر للعودة إلى الطبيعة أي إلى العمق اللا منطقي لعلاقته مع كل الأشياء[٦٨]، فالضدان في الشيء الواحد يجتمعان دائماً لإحداث التوازن به، ويبقى التوازن ما بقي التناسب بينهما، فإذا طغى أحدُهُما على الآخر كانت له الغلبةُ والقيادةُ.

(ب) العقلانية بين التبعية للعقل والتمرد عليه:

العقل لغةً:

أما عن العقل فهو الحِجْرُ والنُّهى ضد الحُمق، والعاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، والعقلُ التثبت في الأمور وسمي العقل عقلاً لأنه يَعْقِل صاحبه (يحبس صاحبه) عن التورط في المهالك أي يحبسه، وعقل الشيء يعقله عقلاً: فهمه[٦٩]، فالعقل يعني الفهم والبعد عن الأخطاء.

العقل اصطلاحًا:

أما " العقل" اصطلاحاً فقد عرفه السيد الشريف الجرجاني بأنه:"جوهر مجرد يدرك حقائق الأشياء والغائبات بالوسائط، ويدرك المحسوسات بالمشاهدة؛ وهو محله الرأس أو القلب على خلاف في ذلك"[٧٠]. والعقل يمر بأربع مراحل في تشكله لدى الإنسان على النحو التالي:

أ- العقل الهيولاني: وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهي قوة محضة خالية عن الفعل كما للأطفال، وإنما نسب للهيولي لأن النفس هذه في المرحلة تشبه الهيولي الأولى الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها.

ب- العقل بالملكة: وهو علم بالضروريات، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات.

ج- العقل بالفعل: وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب، بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت – من غير تجشم- كسب جديد لكن لا يشاهدها بالفعل.

د- مرحلة العقل المستفاد: وهو أن تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه(٧١).

حول العقل وما يتعلق به:

إن العقلانيةَ استعمالٌ للعقل في إيضاح الأمور التي يتعرض لها صاحبُها وتفسيرها والحديث عنها، فتكون القضيةُ المطروحة للإيضاح والحديث عنها مرهونةً بما يؤمن به العقلُ وما وَقَرَ في ثناياه للإجابة عن هذه الأمور، والتمييزِ بين محاسنها ومساوئها، لذا فالشاعرُ تظهر عقلانيتَه في التعرض لبعض الأمور أو القضايا، كالزهد، والحكمة، والوصف، وغيرها، وإبداء رد أو إجابة بليغة حول هذه الأمور، وكيف يجب أن تكون؟

والإسلامُ قد أعلى، وغيره من الشرائع، من العقل وقيمته، فالعلاقةُ بين العبد وربه تقوم على بنيان قوي من الوضوح العقلي في العقيدة والشريعة، وهذا لم يعمل على تقييده أو الحد من إمكاناته فلا تقليل ولا تعطيل لخدمة البشرية عن طريقه في كل وقت (العقل)، فقال سبحانه:" كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبَروا آياته وليتذَكَرَ أولُو الألباب"(٧٢)، فالعقل سمة مميزة، وتشير بقوة للإنسان؛ فهو يشترك مع مخلوقات أخرى في أمور عديدة لكنه يفارقها في عقلانيته التي يمتلكها، بل إن هذا سببُ مناط التكليف والمحاسبة له؛" فالإنسان لا يتغذى وينتقل ولديه أحاسيس تجعله مدركًا للبيئة وحسب؛ وإنما هو يفكر ويعقل كذلك، وقدرتنا على العقل . على تنظيم أفكارنا في شكل منطقي متماسك. هو أكثر قدراتنا البشرية تميزًا وحسمًا، و.... وإن سعادة الإنسان السامية تكمن في "النظر" في ممارسته قدرات العقل النظرية الخالصة"(٧٣)، فالعقلانيةُ هي الاحتكام إلى من له اليدُ العليا والقول الفصل في الرؤية الثاقبة حول الأمور وتفسيرها

والحديث حولها، فتكون القضيةُ المطروحةُ للإيضاح والحديث عنها رهينةً بما يراه العقلُ ويقنعُ به، وهكذا يكون التمييزُ بين محاسن الأمور ومساوئها، ولذا فـ (سعدون) أماط لثامُ جنونه عن وجه عقلانيته حين عرض إلى بعض القضايا يفندها ويدعو لحلول لها، كالإقبال على الدنيا وضرورة الابتعاد عن ذلك بالزهد والحكمة، ودعا لفضائل الأخلاق ومكارمها كالكرم والإيثار، وغير ذلك.

ومهما وصل العقلُ لمراحل متقدمة من الإدراك للأمور وبواطنها يبقى العجزُ وعدم الكمال ملمحًا بارزًا ومشاهدًا؛ حيث نراه يعجز عن إيجاد حل لبعض الأمور المؤرقة له ولبني جنسه من الآدميين، وحتى الحيوانات والنباتات وغيرها، فالخالق (سبحانه) يمنح من يريد علمه ويزيل الغشاوة عن عقله فيرى ما لا يراه الآخرون، ولن يرى إلا قدرًا يسيرًا، فقد قال سبحانه:" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"[٧٤]، ولذا فالعقلُ قد يأتي بأشياءَ منافيةٍ للمنطق؛ لكونه غير مكتمل، والعقل لا يهتدي إلا بنور مَنْ خلقَهُ، ولذا فالشعراءُ المجانينُ العقلاءُ إنما إلهمهم. أغلبهم. عقلُهُم عبر قنوات خاصة أُودِعَت في عقولهم رحمةً بهم من ربهم، فينطقون بما لا يأتيه العقلاءُ، فالعقلُ هو" العلمُ بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، أو العلمُ بخير الخيرين وشر الشَّرين لأمور أو لقوة بها يكون التمييز بين القبيح والحسن ولمعانٍ مجتمعة في الذهن تكون بمقدمات تتسبب بها الأعراضُ والمصالحُ، و(هو) نورٌ روحانيٌّ به تدرك النفسُ العلومَ الضروريةَ والنظرية"[٧٥]، لذا فلا عجب أن نرى كم كان (سعدون) في تمام العقل حين يُقرَأ شعرُه.

والعقلُ هو الأداة الفاعلة والمسيطرة على أي حراك فكري أو استنتاج منطقي؛ فلن يُقْبَلَ شيءٌ إلا عبر مروره على العقل وتصديقه بل وتأكيده عليها، وهو يعطيه مفاتيحَ الخوض في غمار الأمور قولاً كانت أم فعلاً، وهو الذي يهيىء لصاحبه علمًا صحيحاً، ويوضح له سُبُلَ الرَّشاد، ويكون عنده قوةً خالقةً تسمى قوةَ الفكر[٧٦]، وتكون دلالة سلامة العقل في اقترانه بالسوك القويم لدى الإنسان، وقد ربط علماء الإسلام

العقلَ بالدين والسلوك القويم، فالعقلُ" عقلان العقل السليم وهو ما كان فيه الحق، والعقل السقيم وهو ما خلا منه الحق"(٧٧)، ويوصل العقلُ صاحبَه إلى حقائقِ المعرفةِ التي ربما يضل طريقَهَا كثيرٌ من العقلاء، ويكسبه أيضاً الحكمةَ والنظرةَ الثاقبة في معالجة الأمور والنظرةَ إليها بعين المنطق الناقد المعالج لما بها من عوارٍ أو نقصٍ.

ويضحى القلبُ عقلاً لأحيانًا ونراه يمكن صاحبَه من التمعن والنظرة الفريدة لبواطن بعض الأمور، فيصقله بقوة ويسلحه بأسلحة قوية تمكنه من البعد عن العناصر المادية التي قد تختم عليه وتطبعه بغلاف يحول به دون رؤية الحقائق وكنهها الحقيقي، فيكون كما قال الهجويري(ت ٤٩٢هـ):"ابحث عن النفس فإنها إذا عرفتها وصلتَ إلي غاية الطريق، حيث إن (الله) تعالى منزه عن البحث عنه في الزمان والمكان"(٧٨)، فالقلب أحيانًا يحل محل العقل؛ فهناك أمور لا ترى إلا به يعجز العقل عن إدراكها؛ لعدم منطقية تكوينها وغرابة بواطنها.

ولأن للشعر نظرةً في بواطن الأمور بعين ثاقبة وبمؤازرة الخيال لها، لذا كانت للشاعر عقليةٌ ترى الأمور من زاوية مختلفة عن غيره؛ فالشاعر يخبره عقلُهُ عبر حكمٍ واضح وقوة على استبصار الأمور نتيجة خبرات سابقة أو رؤية متميزة، فهو بذلك أفضلُ من العقلاء الذين يعيشون في ثوب المجانين بأفعالهم الخاطئة، ولكن الشاعر أحيانا . ك(سعدون) يكون عاقلًا في ثوب المجانين؛ فمن يحس ويشعر بالأمور وبواطنها ويمتلك النظرة الفلسفية الثاقبة تجاهها إنما يمتلك عقلاً متوقداً وهاجاً؛ فإننا نعزو إلى العقل وظيفتين أو درجتين، الأولى هي الحكم على الأشياء واضحة بذاتها، والثانية من استخلاص نتائج ليست واضحة بذاتها من حقائق واضحة بذاتها الوضعية الأولى منهما هي مجالس الحس المشترك"(٧٩)، وهذا الحسُّ إحدى نتائج العقل، وصورةٌ متشكلة تحكيه وتصوره، فإن" الحس المشترك ليس هو كل العقل بل هو عمل من أعماله"(٨٠)، لذا نرى (سعدون) يعبر بقوة عبر شعره عن قضايا عصره كالزهد، والحب الإلهي، ونجد وصفًا قوياً لعصره الذي كان متلاطم الأمواج لا يقر عينًا ولا يهدأ له بال.

الفصل الأول: مظاهر العقلانية الموضوعية في شعر الجنون عند "سعدون".

إن فوضى الجنون قادت (سعدون) لعقلانيةٍ ربما لم يكن ليتمتع بها إن لم يكن من زمرة المجانين؛ فقد جاء شعرُهُ منظمَ الأغراض قويَ الكلمات ذَا فصاحة وبلاغة، ولمس بعضًا من مشكلات عصره، فلم تكن الكلمات إحدى الصعوبات التي يعانيها (سعدون) لنظم شعره كما هو معروف عن المجانين، فكان صاحبَ لسان فصيح ومنطق سليم، فلم تشكل الكلماتُ عائقًا يقفُ أمامه في قرضه الشعر، والكلمات لا يخفى على أحد أنها لسانُ اللغة وعقلُه المفكر، وهي تمثل الوجهَ الآخر الماديَّ للمنطق؛ فكلماتُ الشعر هي منطقه الخاص، إنها تتيح ما يصوره الشاعر وما يبرهن عليه ويقرُّهُ، ويصر على وجوده، وما الشعر إلا علاقةٌ بين المنطق والعقل يغذيه الخيالُ، فإلغاء العقل في شعر الجنون لا يكون هنا أبدًا؛ فالجنون هو عقل ناطق معبر هنا عما يريده الشاعر.

والشعر ارتبط عند طائفة من الشعراء بجنونهم؛ فنجد الشعراءَ العشاق والموسوسين، فنجد ذكرًا للعديد من المجانين العشاق أمثال: قيس لبنى، وكثير عزة، وغيرهما، فالعشق حين يسيطر على صاحبه يتركه أسيرًا لعقل مفقود قد أصبح كشخص لا يسمع ولا يبصر، وكذلك كان (سعدون)، فقد أخذ حبُّ (الله) سبحانه لُبَّهُ وعقلَه، وهذا ما أكدته الكتب التي تحدثت عنه(٨١)، فقد اتفقت كلها حول ذهاب عقله؛ لحبه الجارف (لله) عز وجل.

وانعكست العقلانيةُ في شعر (سعدون) عبر مرآة جنونه، لذا فسوف ينصب البحثُ على مواضعَ حضور العقلانية في شعره، وكيف كانت عبر شعره الذي ثَبُتَ عنه، فنجد في شعره عقلاً ناطقا مبدعًا، ويظهر فعلٌ يناقض فكرًا عبر الشعر الذي ينطق به، فمن يراه مجنونًا سيفاجأ بعقل ناطق عبر شعر نَظَمَهُ بقوة وتأثُرٍ، فهو من عقلاء المجانين، أما العاقلون من حوله فهم أحيانًا مجانين في ثوب عقلاء، فانفعالات (سعدون) تظهر جلية في شعره معبرة عن قريحة متقدة، ولذا يكشف البحث عن الأسئلة

التالية: هل كان سعدون مجنونًا أم عاقلاً؟ وما هي مظاهر الجنون أو العقل في شعره؟، وهل الجنون يكون سببًا للعقلانية وأحد مظاهرها أحيانًا؟

إن اللفظَ والمعنى هما جناحا الفكرة يطيران بها للقاريء عبر طائرة الشعر المحلقة في سماء الخيال، وقد جسدت كلماتُ (سعدون) ذلك المجنون العاقل نظرتَه العاقلةَ تجاه أمورٍ معينة، كالموت، والزهد وغير ذلك من قضايا، وكانت أبياته بليغة؛ فقد أوجز فيها وأوصل فكرته لمتلقيه عبر عقل حمله جنونٌ ناطقٌ معبر كان قد أُتخِمَ بالمعاني التي أطلت من وراء حجاب الجنون، وليته جنونٌ! إنه العقلُ ذاتُه، فقد أفرزت قريحتُه الشعرية دعواتٍ صادقةً للتخلص من بعض الأمراض المجتمعية، فشعره له منطقٌ سليمٌ وعقلٌ نابضٌ مفعمٌ بالصواب والرؤية المتقدة لبواطن الأمور، لهذا جاء شعرُهُ عقلاً قوياً نابضًا بالحياة وبالحلول لما استشكل على الإنسان.

وكانت العقلانيةُ الموضوعيةُ متشكلةً عبر شعر قوي يمثل رصدًا لقضايا مجتمعية شائعة وشائكة، ويكشف عنها، وتشكلَ شعرٌ يكشف هذا تمثل في الشكوى، والنصح والإرشاد، والوصف، وتشكلت في أغراض، كالتالي:

(أ) شعر النصح والإرشاد:

كان (سعدون) ناصحًا أمينًا في شعره وما تضمنه في هذا الشأن؛ فلا ينصح ويرشد إلا بما يقي الإنسان مخاطرَ الأمور ويجعله يرى الأشياء بعقله الواعي، فها هو ينصحُ بتجنب رفقة السوء، وينبذ الاختلاط بهم ؛ كونهم موردًا للهلاك، إنهم عُرٌّ يعدي صاحِبَهُ ، يقول:

خُذْ عن الدنيا جانبًا //// كي يظنوك راهبًا[٨٢].

ومن يفعل جميلاً لا يعدم أثره، ولو بعد حينٍ، فالجزاءُ الأمثل لم يأتِ بعد، يصور هذا (سعدون) بقوله (من البسيط): اِعْمَل وأنت من الدنيا عَلَى وَجَلٍ //// واعْلَم بأنك بعد الموتِ مبعوثُ.

واعلم بأنك ما قدَمتَ من عمل //// مُحْصَى عليكَ وما خَلَّفْتَ مَوْرُوثُ[٨٣].

يا له من أمر يدعو للعجب أن ينصح المجنونُ، هنا، العقلاءَ أيضاً بفعل الطيبات من الأمور وعدم انتظار العائد منها؛ فالجزاءُ الأوفى سيراه من قِبَلِ رب العالمين، فهو يعكس قوله تعالى:" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"[٨٤]، وأيضًا كأنه ينظر لقوله تعالى:" إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ"[٨٥]، ومن يعمل عملاً جميلاً فليربحن يوم القيامة الخيرَ الكثيرَ، وليلقينَّ الجزاءَ الوفير، كما أخبر (الله) عز وجل في محكم تنزيله:" وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى"[٨٦]، فثوب العقلانية لم يكن ليبرز للقاريء في صورة أجمل من هذه الصورة المتقنة، فأي جنونٍ نتحدث عنه؟! إنه هنا عين الإبداع، ولا شيء دونه، فامتزاج الضدين أحيانًا يكون مدعاةً للإبداع والتفرد والبعد عن مألوف الأمور، ومن يحاجج بأدلة وبراهين ثابتة واقعية هو عاقل بل في أوج عقلانيته؛ فالدعوة لترك الدنيا والإقبال على الحياة الحقيقية هو الفوز العظيم.

وتظهرُ بلاغةُ العقل المعكوسةُ في ما يرسمه الجنونُ حول إطار العقلانية حين تهدم أسوار اللا معقول ليقومَ على أنقاضها بناءٌ متكاملٌ من الدعوات الصادقة عبر (اعمل) وتكراره، الذي يبرز توكيدَ النصح والإرشاد، وهذا لن يتأتى إلا لمن كان له عقلٌ وقلبٌ ومن عَرَّكَتْهُ التجارِبُ والمواقِفُ فاشتد عودُه وقوي، وكيف يتمثل الرؤية القرآنية التي تحملها الأبيات من لا يعقل ولا يدرك فحوى ما يأتي به! وما كان ذلك عند (سعدون) ممكنًا إلا بتحرر عقله من أسواره وإبحاره في بحر الجنون الذي يصل به إلى بر الإبداع والتأثير في المتلقي.

والنصح والإرشاد أيضًا يطلان من وراء جنون ماثل في قول (سعدون) حين يدعو إلى ترك شرب الخمور وما كان دائرًا في فلكها بغية الحفاظ على النفس وعدم هلاكها؛ فهذا ما فطرت عليه النفسُ، يقول(من المتقارب):

تركتُ النبيذَ لأهل النبيذ ///// وأصبحتُ أشربُ ماءً قَراحا

لأن النبيذ يُذِلُّ العزيزَ ///// ويكسو الوجوهَ النِّضارَ الصِّبَاحَا

فإن كان ذا جائزا للشباب ///// فما العُذْرُ منه إذا الشيبُ لاحَا(٨٧).

قال الأصمعي واستُشْهِدَ بهذه الأبيات حين ذُكِرَتْ قصته مع (سعدون)، فقد قال: "مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه، فقلت: ما لي أراك عند رأس هذا الشيخ؟ فقال: إنه مجنون. فقلت: أنت المجنون أو هو؟ قال: لا، بل هو، لأني صليت الظهر والعصر جماعة، وهو لم يصل جماعة ولا فرادى. قلت: فهل قلت في هذا شيئا؟ قال: نعم. وقال الأصمعي: صدقت وانصرفت"(٨٨).

وتلك النظرة العاقلة لضرورة الابتعاد عن كل ما يضر النفس ويجهض طبيعتها رؤية ثاقبة؛ فالخمر قد حُرِّمَت لأضرارها التي فاقت منافعَهَا، فقد قال سبحانه:" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"(٨٩)، وربما يقول قائِلٌ: كيف يجيزه للشباب ولا يُعذَرُ من كان دونه؟ ولكن نظرة فاحصة للبيت تفصح عن أنه يريد الأثر البعيد وهو أنها تضر الكبير بصورة أوضح عنها في الشاب؛ فربما كان مقصود الشاعر الموت الذي ربما يباغت أحدَهُمَا، وأقربهما هو الكبير سنًّاً، ولكنها نظرة قاصرة، أو ربما يرصد الضرر الذي يكون الشباب أكثر قدرة من نظيره المسن على تحمله ومواجهته، وهو قد أبان عن هذا وأبلغ حين ترك النبيذ؛ لما رآه من إذلاله لصاحبه، وما أبصره من تجميله الكاذب له؛ فدلالاتٌ شتى تضمنتها كلمةُ (الصباحا) التي تشير إلى الجمال، ومفردها صُباح وصبيح(٩٠)، وربما يرمي من وراء أبياته التأكيد على أنها تغير الحال الأحسن التي عكسته كلمة (الصباح) إلى الأسوأ، وهذه أمور لا يفطن إليها من كان فاقدًا لعقله غير مدرك لما حوله، فهو يعقد مقارنة بين وجهين متناقضين لها (الخمر)، فالانسجام الحادث بين النقيضين يوضح بقوة العقلانيةَ التي

عليها صاحبُ النص، ويفطن عبرها القاريء إلى مراد صاحبه؛ وتتنوع لذلك تأويلاتُ القاريء، فإن "انسجام النص ليس معطى بشكل سابق على الذات التي تقرأ وتؤول وليس هناك انسجام واحد، فكل قاريء يخلق انطلاقًا من السؤال الذي يضعه على النص، انسجامه الخاص"(٩١)، وكثرة التأويلات تعد شكلاً صحيًا لحيوية النص وديمومته.

ولذا نجده في موضع آخر في شعره ينص على هذا ، يقول(البسيط):

أما النبيذُ فقد يُزْرِي بصاحبه ///// ولا أَرى شَارِبًا يُزرِي به الماءُ(٩٢).

فالبيت ناطق بكمال الصحة والعقلانية بالنظرإليه للوهلة الأولى؛ فلن يؤثر سَلْبًا شُربُ الماء على صاحبه مطلقًا، وإنما يكون التأثيرُ السيء مما يذهب بالعقل بعيدًا، إن الخمر هي ما يفعل هذا الأمر، لذا يعمل (سعدون) على إيضاحه بأسلوب لا يتكلف فيه ولا يُلْغِزُ، وهذه طريقُ العقل الواعي المدرك بواطن الأمور، جيدها وسيئها، ولا تخفى الموازنة الخفية بين نوعي الماء: الخمر، والماء المعروف، فهو يرصد الأثر اللاحق لهما بوضوح.

وحين يلامسُ الجنونُ الجوانبَ المظلمة والمجهولة من الذات الشاعرة يعمل على إيقاظها فتضحى مضيئةً عبر الإبداع غير المألوف الذي يتسبب عنه هذا الجنونُ، وهذا نجده ماثلاً بقوة في النصح والإرشاد لغيره بضرورة التواضع والبعد عن الفخر والكبر، فهو (سعدون) يغوص في بحر العرفان يستخرج منه أصداف الحكمة والدعوة إلى الالتزام بمنهج صحيح يؤدي بصاحبه إلى الفوز في الدنيا والآخرة، ولِمَ لا؟ وهو الذي كتب من قبل للخليفة (المتوكل) العباسي قائلاً له ينصحه(٩٣): يا أخي أما بعد، فإنك قد طمعتَ في الحياة ونسيت تراصف الأقدام وتطاير الصحف في الشمائل والأيمان، فاذكر حسرتك عند انكشاف الغطاء، وقرأ قوله:" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ"(٩٤)، فها هو يقول،(البسيط):

أعرضْ عن الفخر والتمادي ///// وارحَل إلى سيدٍ جوَادِ
ما العيش إلا جوارُ قـومٍ ///// قد شَرِبُوا صافـي الوِدَادِ[٩٥].

إن الدعوةَ التى يدعوها الجنونُ هنا دعوةٌ عاقلةٌ تبغي كونَ الإنسان متواضعًا كريما، وحبذا لو جاور الكرام.

فإن خلائقهم تعدي، ولا يخفى التعبيرُ البليغُ (شربوا صافي الوداد) الحامل للكناية الدالة عن النقاء والصفاء، والاستعارة في (صافي الوداد) التي تعزز الصفة المحمودة المركوزة في الصفاء والتي تعطيها صفة التجسيم القوي بغية التدليل بالحجة والبرهان على كرم هؤلاء، وأفضلية العيش بجوارهم، وتظهر بنية الأمر في (ارحل – أعرض) نصحًا وإرشادًا يأخذان بيد القاريء إلى طريق عقلانية تسير أعلاه صفاتٌ محمودةَ لطالما حثَّ (سعدون) عليها في شعره، وما هذا بقول مجنون بل حكيمٌ قد أرشده الجنونُ إلى ما لم يرشد إليه العقلاءَ، وربما هذا لنقاء قلبه ورهافة حسه اللذين عُرِفَ بهما، فالبيتان أوجزا عديداً من الأمور التي يدعو العقلُ إليها بقوة،وما هذا بصادر عمن لا يعي حقائقَ الأمور وفضائِلَها، فضائلَ التواضع والبعد عن الفخر والتعالي، وهذا إبداعٌ وليس جنونًا؛" إذ إن المجنون الحقيقي من تلتبس عليه السبلُ التباسًا يكدر صفو بصيرته ويمنعه من التفريق بين نهج الهدى ونهج الضلال، فمعنى الجنون راجعٌ إلى عدم التمييز بين الغي والرشد"[٩٦]، ولن يميزَ مجنونٌ بين سببٍ ومسبب عنه، ونقصد هنا الكرمَ ونتائجه، ومن يعي الفروقَ بين الكِبْرِ والتواضع يعلم أن الأفكار تأتي لحيز التطبيق عبر الدعوة إلى إظهارها لا سيما إذا كانت أمورًا نافعةً، والضد أيضًا، وإن هذا التحيزَ لفعل الشيء والإعراض عما سواه لهو" ضميرُ معرفة صحيحة معرفةٍ تحمل علامةَ الفعل الإنساني، الفعلِ المتبصر الجاد، المعاير...وليس للعقلانية أن تنظر إلى العالم إلا كمبحث للتقدم الإنساني"[٩٧]، وهكذا، فعقلانيةٌ وليس جنونًا هو ما قاد (سعدون) وأرشده ليتمكن من قول هذا، والتأكيدِ عليه، إنه مبصرٌ يعي بقوة حقائقَ الأمور إذن.

وسبرُ أغوار الأمور لا يقدر عليه إلا كلُ فَطِنٍ أَرِيْبٍ، ومن أدرك معاني الأمور وكُنْهَهَا، وهذا لن يقع إلا لمن امتلك قريحةً متقدة ونظرةً ثاقبة، ومن هؤلاء نجد الشعراء،" فالواقع أن العبقرية لا تكاد تعني أكثر من ملكة الإدراك ولكن بطريقة غير الطريقة العادية التي يألفها الناس"[٩٨]، ولأن (سعدون) كان ذا عقل واعٍ ورؤية إبداعية لذا نراه يبلغ في نظرته إلى الدنيا المنقضية غير الدائمة ويدعو لتركها حين قال، (الطويل):

ولو لم يَكُن شيئاً سِوَى المَوت والبِلَى ///// وتفريقِ أعضاءٍ ولحمٍ مبدَدِ

لَكُنْتَ حَقِيْقَاً يا ابن آدم بالبُكَا ///// على نائباتِ الدهرِ مع كُل مُسْعِدِ[٩٩].

إن العقلانية الماثلة في ثوب الجنون الناطق على لسان (سعدون) توجهُ الإنسانَ لِقِبْلَةِ القياس المنطقي للأشياء؛ فالتفرقُ والموتُ للأشياء أدعَىْ لعدم البكاءِ عليها، ولا بد في كل الأمور من النظرِ إلى بواطنها، وما تحويه سرائرُها، وعدم الركون إلى الظاهر والخارج منها، فالتناقضاتُ هنا أدعى لهذا المنطق؛ فالموتُ والحياة، والتفريق والجمع، والسعد والنائبات، وكل هذا وأكثر، يجعل الإنسان يتجه (لله) سبحانه، فالتناغم الدلالي بين الألفاظ ومعانيها لا يصنعه إلا من كان واعيًا مدركًا للأمور، وهذا يجسد شعورًا داخليًّاً لرثاء حقيقي من الشاعر لذلك (الأنوك) من الناس الذي يظن الدنيا ظلاً دائماً سيبقى، وإنما هي إلى زوال، إنها دعوة للتعقل إذن، وإن تناغم الداخل والخارج وطرق التعبير. ليصبح إفصاحًا عن الفعل الكلي للشعورالمتدفق المشترك، وهكذا تصبحُ كل كلمة من كلمات الشاعر منبهًا يوقِظُ الشعور الكامن في الآخرين[١٠٠]،إنها هنا اللحظةُ التي يحيا فيها الإنسان شعورَه العميقَ الكاملَ بصدق وبنقاء، اللحظةُ التي ينسى فيها نفسه ويستيقظ فيه معنى الشعر الهادف والخلاق.

وما يميز (سعدون) بحق هو نظرته الشاملة للأمور من حوله وعدم ذاتيتها؛ فهو يطلق شعره أملاً في إصلاح غيره، وهذه من مهام الشاعر الحق، الشعور بحقائق الأشياء ورسمها بحقيقتها كانت خيرًا فالإيجاب منها هو المأمول، وإلا فالسلب والنفور

هو الذي يُخلق تباعًا، فهو يسمو بنفسه ومجتمعه تجاه المُثل العليا، ويدعو لنشرها والمحافظة عليها، فنراه يدعو للتقرب من الله بغية السعادة الروحية وراحة البال، يقول (السريع):

يا أيها الرَّاقَدُ كَم تَرْقُدُ ///// قُمْ يا حبيبي قَدِ دَنَا المَوْعِدُ

وخُذ من الليلِ وساعاتِهِ ///// فَازْدَدْ إذا ما سَجَدَ السُّجَّدُ(١٠١).

إن حاجةَ الإنسان إلى التعبير عما يُعْتَمَل في أعماقه تشيرُ إلى محاولته المتواصلةِ رسمَ الصورة الكاملة للحقيقة الصافية التي يرى عليها ما يصوره، فهو يُصِرُّعلى ضرورة الانتباه من الغفلة التي عليها الجاهلُ لحقيقة الموت، فينصحه بعدم الركون للسكون ويرشده لإحدى صور التأهب لهذا الزائر (الموت) بضرورة الصلاة والتقرب (لله) سبحانه، والنصح والإرشاد في (قم – دنا – ازدد) لن تأتي من مغيب عن العقل بل هي العقلانية في ثوب قشيب يميط اللثام عن صاحبه بقوة، فما المجنون بناصح لعاقل بمثل هذه الفلسفة والحكمة، ولا تخفى الاستعارة في (ترقد – الموعد – حبيبي – قم) التي لفاعلها الإنسان الغافل، فأنَّى للجنون بهذه الفلسفة؟! إن الداءَ والدواء قد اجتمعا وكأنهما يشيران بقوة للجنون والعقلانية التى تكون في جوف كل لاهٍ ومتكاسل، وليست تلك التي يظنها الناس في (سعدون)، فالجنون من ينصح العقلَ لكي لا يصل للجنون الحقيقي أو المرض العضال.

ولا يخفى تأثيرُ النداء وكمِ الخبريةِ في البيت، واللذين يفيدان القربَ للمنادى والتكثيرَ الذي هو عليه من الغفلة والانصراف عن الحقيقة الغائبة التي تلازمه كظله أو أقرب، ولذا فإن النصح والإرشاد يكونان للقريب عن صدق وحب له، وهذا ما يطمح إليه (سعدون)، وربما أراد القريب من عقله القوي غير المجنون، وهكذا فشعره له الدور القوي في التوعية والدعوة للتقوى والتزود من الخير، وهذا وجه جميل للعقلانية التي تدعو لعبادة الخالق سبحانه، وهذا الأمر لهو" يقين مثبت يجلي حقيقةً اجتازت جدلاً، وبالتالي باتت قادرةً على مواجهة الجدل، فهو نورٌ يمكن نشرُه، بل مُرَادٌ نشرُه"(١٠٢)، ومن

يصل ليقين الأشياء يصل إلى تشخيصها وعلاجها الصحيح، لا سيما إن كانت داءً وَجَبَ إيجادُ دَوَاءٍ له، كداء حب الدنيا والانصراف عن الآخرة.

ودعوةُ (الله)، وحده، والشكوى إليه مظهرٌ من مظاهر العقلانية وآلةٌ من آلاتها الهادرة في جوف جنون الشعر، ومن يعتقد ذلك فهو قد امتلك اليقين الذي يهديه إليه عقلُهُ، ونجد ذلك الأمر عند سعدون، يقول (الطويل):

وَلا خَيرَ في شَكوى إلى غَيرِ مُشتَكَى ///// وَلا بُدَّ مِن شَكوى إذا لَم يَكُن صَبرُ[١٠٣].

تتكرر الكلمات التي تأخذ الأصل (شكى) في البيت لتدل على ما يؤرق سعدون، إنها عدمُ الجدوى من الشكوى لمن يشكي حاله أيضًا، وإنما وجبت الشكوى (لله) تعالى دون غيره؛ فهو الكاشف لكل ما يؤرق الإنسان، ويحمل البيت الدعوة إلى الصبر والتزامه كعلاج فعال لهذه الشكوى، وهذه قيم عقلانية لا غنى عنها، وشواهد لا تنكر لعقلانية (سعدون)، وقد قاله حين سُئِلَ ذو النون المصري مِنْ (سعدون): متى يكونُ القلبُ أميرًا بعد أن كان أسيرًا؟ " قال: إذا اطلع الخبير على الضمير، فلم يَرَ فيه إلا حُبَّه، فصرخ وخرَّ مغشيًّا عليه، وقال البيت ثم قال: إن من القلوب قلوبًا تستغفر الله قبل أن تُذْنِب، فقال له ذو النون: نعم، تلك قلوب تثاب قبل أن تطيع، أولئك أقوام أشرقت قلوبُهُم بضياء روح اليقين"[١٠٤]، و(سعدون) يضع معادلةً منطقيةً وهي وجود الشكوى لانعدام الصبر، وأن رب العالمين وحده هو القادر على جعل الفرج بعد الضيق واليسر بعد العسرة، وكان المتصوفون، ومنهم (سعدون) يرون أن التخلصَ من الأفكار السلبية والإحساسات والصور الداخلية وجميع الأفكار المجردة وعمليات الاستدلال والإرادة والمحتويات الذهنية الأخرى ضرورةٌ حتميةٌ، وأنه إذا ما حدث ذلك فعندئذٍ تنبثق إلى النور الأنا الخالِصَةُ التي كانت مختبئةً عادةً[١٠٥]، فتجنح إلى السكون وعدم الشكوى، وترى الصبر علاجًا ناجعًا لما بها؛ فإنها قد تخلصت به وبفضله من العلائق والشوائب الدنيوية وانفتحت لها أبواب النور والنجاة.

ولن يصلَ القلبُ للحقيقة الأبدية وكنهِ الأمور إلا بالبحث في ما وراءها، فيدرك الإنسانُ الثوابَ والعقابَ الذي سوف يعودُ عليه جرَّاءَ الامتثال أو المخالفة للصواب، هذا ما تعكسه أبياتُ (سعدون) (من المنسرح):

يا طالبَ العلم من هنا وهنا //// ومعدنُ العلم بين جنبيكا!

إن كُنْتَ تَبْغِي الجِنَانَ تسكُنْهَا ///// فمَثِّل العَرْضَ بين عَينَيْكَا

إن كنتَ ترجُو الحِسانَ تخطُبُها ///// فَأَسبِلْ الدَّمعَ فوقَ خَدَّيكا

وقُم إذا قام كلُّ مجتهدٍ ///// وادعُ لكي يقولَ: "لبيكا"![١٠٦]

شروطٌ عقلانيةٌ يضعها (سعدون) هنا لمن أراد الفوزَ بالجنان أو الحسان وعلياء الأمور، إنها التفكرُ في جزاء ما قدمت يدُ الإنسان يومَ القيامة، والندمُ على ما قدمتْ يَدَاهُ، والتوبةُ، وعدمُ الرجوع إلى ما فعلَ ثَانِيَةً، و السعي الدؤوب، والسير في طريق النجاة دون توقف، وهذه الأمور، بالطبع، عقلانيةٌ لا تنم إلا عن موافقتها لنفس (سعدون)، وإيمانه بها، فمن ينظر لحياته يجد ذلك واضحا جليَّاً، فالكلماتُ هنا توافقُ نفسيةً متزنةً غير تابعة لشيءٍ إلا للمنطق وللصواب، فهي حسنةٌ مؤثرة؛ فالكلمةُ إذا خرجت من القلب وقعت في القلوب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان[١٠٧]، فهي صماءُ لا روح فيها ولا فائدة منها سوى رتق الفراغ اللغوي.

ولا تخفى براعةُ الشاعر في الملائمة بين الغاية من جميع الأمور التي عرضها وبين الطريق المُوصِل إليها، فهي أمورٌ عالية لا يصل إليها إلا ذوو الهمم، ولا يأملها إلا عاقل تعلق قلبه (بالله) تعالى وحده، فالعقلانية تناثرت فوق حائط الجنون في منظر رسم صورةً عقلانيةً لتصرفاتٍ يعقلُهَا (سعدونُ)، فالجنونُ هنا هو الذي يظهرُ العقلَ ويضعه في صورته الصحيحة؛ فالجنونُ صورةٌ للحكمة التي تبدو واضحةً في الربط بين الأمور ومسبباتها والناتجِ عن تلك المسببات، إذن الجنونُ آلةُ الإبداع المحركة لها، وطريق ممهدٌ للوصول إلى الحكمة و(سعدون) إن كان موصوفًا بالجنون

فإن ذلك في كلامه، وما أكثر حدوث هذا!، ولكن لم يكن مجنونًا في شعره؛ فهو ناطق بعقلانية قوية تصور الأشياء، فالربطُ إذن بين الجنون والنتاج الشعري ونوعه العميق، وما يترتب عليه من نتائج قد تصبح مغلوطةً هو من الظلم البيِّنِ لصاحبه؛ فقد كان (سعدون) يخلط، هو وغيره من مجانين الشعراء ومَوسُوسِيه، في كلامه، ولم يكونوا يخلطون في الشعر، ولِمَ لا ومضامين الشعر خير برهان ومؤكد على ذلك![١٠٨]، وقد عُرف (سعدون) بإتيانه الشعر الجيد الدال على معرفة واعية بأسباب الهلاك التي يردها الإنسانُ وهو في غفلة من أمره، وعدم التفاته إلى تلك التي تسير به لجناتِ النعيم، والتي تصلُ به للحياة الحقيقية والعيشة الراضية، وهذا ما ترسمه لوحةُ الشعر التي يطل العقلُ منها هنا، ذلك العقلُ الحاضر القوي غيرُ المصاب أو الفاسد، وما تضمره الأبياتُ عبرالضمير المخاطب (كـ) دعوةٌ واضحة لا لَبْسَ فيها لفضائل الأمور ومحاسنها، وذلك عبر أسلوب النصح والإرشاد الذي لا يَخفَى أثرُهُ في التأثير على القاريء.

إن ما وراءَ الجنون قد أظهرَ عقلانيةً أَتَتْ من التحرر من قيود العقل التي تضحى حجر عثرةً في طريق الإبداع، فيكون الوصول لما يعجز عنه الإنسان العادي المتبع نُظُما وقوانين معينة، أو ما يسمى الالتزام، فعوالم البلاهة والجنون وحَّدّت قدرات الشاعر المجنونة فكان التفاعل العميق بين الجنون والحكمة، والحقيقة والخيال، والواقع وغير المرئي البعيد، فكانت المحصلة الرائعة وهي إخراج كائن خرج عن حدود المألوف، إنه الإبداع.

(ب) شعر الشكوى والعتاب:

ويأتي شعرُ الشكوى والعتاب كتطبيق عملي لعقلانية موضوعية تبعد عن الذاتية، وهنا يكون انعكاسُها معادلاً قويًّاً لوعيٍ بالأحداث والمشكلات من حول (سعدون)، لذا هو يشكو منها ويتجاوب معها سلبًا وإيجابًا، ويأتي العتابُ كباب من أبواب الخديعة يسرع إلى الهجاء وسبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء فإذا قَلَّ كان

دامية الألفة وقيد الصحبة، وإذا كثُرَ خَشُن جانبه وثَقُل صاحبه وللعتاب طرائق كثيرة وللناس فيه ضروبٌ مختلفة، فمنه ما يمازحه الاستعطاف والاستئلاف، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف[١٠٩]، ومن عاتب أحسَّ، ومن أحسَّ تواصل، ومن تواصل فهو يعي ما يفعل، ولذا فإن من يعاتب هو عاقلٌ يعي جيدًا ما يفعل، ويشعر قلبه بما يجده من أمور غير متفقة مع هواه الداخلي، وهذا العتابُ يكون لفظيا باللسان أو إشاريًّاً عبر الجسد، وهذا مؤشر دال على عقلانية تطبيقية تظهر للوجود نتيجة مساحة من الحرية للعقل والقلب، وبالعتاب يكون التجسيدُ للنوازع النفسية بعيدًا عن القوانين والقيود، وهذا يؤكد وجودَ نفس قوية تتمتع بعقل وحسٍّ يعملان بكفاءة واقتدار، وهذا يؤكد أن (سعدون) إنسانٌ يعي ما يقول، وأنه" تأتي ذاتُهُ في مستوى دون مستوى الإنسان السويِّ كما هو متعارف عليه في الذاكرة الجمعية، لكنها في الحقيقة تجسدُ إنسانَ الداخلِ بكل صفاته ونقاوته وحريته الداخلية التي لا تعرف القيود"[١١٠]، وهذا يؤكد تحررَ عقل (سعدون) من براثن الجنون كما رآه البعض، وأنه يمتلك عقلاً كاملاً؛ فمن يأتي بمثل هذه الأمور من إصابة للكلام بقوة للمعاني السامية التي تحث الإنسانَ وتهديه سواءَ السبيل؟! وما هذا بفعل مجنون قليلا ما نلاحظ.

وجاء شعرُ الشكوى والعتاب مفعمًا بالدلالات التي تشهد بقوة على عقلانية صاحبها، ونجد ذلك يمثل في قول (سعدون) يعاتب نفسه ويشكوها علها ترتدع وتعود لطريق الصواب، يقول (بحر الخفيف):

يا ذنوبي عليك طالَ بُكائي ///// صِرتِ لي مأثَماً فَقَلَّ عَزَائي

في كتابي عجائبٌ مُثبتاتٌ ///// ليتني ما لَقِيتُها في بَقَائي

نَظَرُ العين قادني للخَطايا ///// إذ أَذِنَتْ اللحوظُ للأهواء

تالياً للقرآن يتلو المَعَاصي ///// اسمُه في السماء (عَبْدٌ مُرَائِي)[١١١].

ذنوب تُنادَى وتُخَاطب، وتُذَكِّرُ صاحِبَهَا بأنها سببُ البلاء والبكاء، إنها إحدى الأمور المثبتة في صحيفة المرء، فليت البقاءَ لم يُكتَب كي لا تمتلأ بما حملته من آثام وذنوب لن تُمحَى مهما حاول صاحبُها، وأحد أسباب الذنوب هو العين، تلك التي هي لسان الهوى والطريق المعبد التي تسير عليه الذنوب التي تتسبب بها، فكأن صاحبها يتلو المعاصي على نفسه ويحفظها، وما هذا بجيدٍ؛ فهو المنافقُ بعينه، ومن يفعل هذا منافقٌ بقوة واقتدار، بل سيضحى مُرائيَا في نظر أهل السماء وهذا لن يسرُّه بحال من الأحوال، وتأتي الفائدةُ العليا في الأبيات جراء كونها تحوي تجريدًا قوياً عبر توجيه الحديث من (سعدون) لنفسه وهو يقصدُ غيرَه، إنها الدعوةُ الصادقةُ عبر التلميح القوي الذي لا يجنح للأسلوب المباشر بل لعرض الأمر دون تجريحٍ لأحدٍ أو جذب للأنظار إليه، وإن التجريدَ هو" إخلاصُ الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه.... وله فائدتان... الثانية: وهي الأبلغ وذلك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه إذ يكون مخاطبا بها غيره..."[١١٢]، فالتجريد نوع منه يكون عن طريق مخاطبة الإنسان نفسه[١١٣]، ومن التجريد فرع سمَّوهُ "عِتَابَ الْمَرْءِ نَفْسَه"، وعتابُ المرء لنفسه أو حديثه معها ليس لجنونه؛ وإنما هو تعريضٌ خفي بغيره أو محاولة للفت أنظارهم والتنبيه لهم على أمرٍ ما، وربما لتذكير نفسه حتى ترتدعَ وتهمدَ وتعودَ لرشدها.

وهذه المعاني لن تصدر عن مجنون؛ فمقاربة الأبيات تُشعِرُ القاريء بتجربة عاشها صاحبُهَا فهو قد رجع لصوابه ورشده حين نظر إلى ما اقترف من ذنوبٍ وبقاءِ ذلك في صحيفته، إنه إذن منافقٌ إن لم يعمل بما يتلو من القرآن، فمدلولاتُ الأبيات تتآزرُ لتصنعَ علاقاتٍ جيدةً توصِّفُ حالاً عليها الشاعر، ولتزيح الستارَ عن عقله الواعي، فالأبياتُ تنتصر لعقل صاحبها لما تحققه من نورٍ يمحو ظلامَ الجنون الذي ادَّعاه الناس له بهتانًا، فها هو يعطي قرينةً واضحة على عقلانيته ولا سيما الشعرية، فينسال عذبُ الكلام من شعره المعبرِ بعتابه لنفسه ليدعو لمكارم الأخلاق وفضائلها،

وإن أفضلَ العتاب ما غرسَ العفوَ وأثمرَ المحبةَ، وعَتْبٌ يوجب العفو والصفاء لأفضل من تركٍ يعقبه الجفاء[١١٤]، فها هو يظهر بشعره أطرافاً ثلاثة للعقلانية وهي: فحوى الأبيات الدالة على عقل واعٍ ينظم ما يشعر به، وقائل للشعر، وفائدة مستقاة منه، ويرسم بهم لوحةً صادقةً واقعيةً لما يجب أن يكون عليه الإنسانُ، وإن فائدةً عظيمة تأتي عبر" التأثيرِ بالحق، والناسُ دائماً تتأثر بالصدق ولو كان غيرَ منمق العبارة"[١١٥]، فلا منكر هنا لصدق (سعدون) ودعوته لعلياء الأمور وهذه من شيم العقلاء والحكماء.

وعناصرُ صورة العقل الواعي تَمْثُلُ حين يرى (سعدون) تحية السلام أمرًا واجبًا اتباعَهُ كي يعم الحب والوئام بين الناس، لذا نجد هذا في قوله معاتبًا (إسماعيل بن عطاء العطار) الذي لم يَلقِ السلامَ عليه، يقول(الكامل):

يا ذا الذي تركَ السلامَ تَعَمُّدَاً ///// ليسَ السلامُ بضائرٍ من سَلَّمَا

إن السلامَ تَحِيَّةٌ مَبْرُورَةٌ ///// ليْسَتْ تُحَمِّلُ قائلاً أن يَأثَمَا[١١٦].

إن التراكيب والأفعال المنطقيةَ هي سِمَةُ العقلاء في أقوالهم وأفعالهم، وذلك في التعبير عن الأمور، فكيف بمجنون ان يسرد هذا الأمرَ؟ إنها العقلانيةُ التي تنبعث من بين رماد الجنون فتصير عنقاء المعاني التي تحمل مستحيلاً قد تحقق! إنه العقلُ وما يأتي به، فلا دلالاتٌ بأوضح من تلك التي يعطيها البيت الشعري هنا ليظهر بوضوح عقلانيةَ (سعدون) ومنطِقَهُ، فمن ترك السلامَ هو ضارٌ لنفسه؛ فهي تحيةٌ تجلب البر والبركة لصاحبها ولا يجب أن تكون سببًا للإثم والسيئات، ومن يعي هذه الأمور لن يكون مجنونًا بالتأكيد.

والسلامُ تحية بريئة من قالها التزم بما فيها من السلام والرحمة، وكذلك الراد لها بما فيها أو بأفضل منها، وهذا ما قاله سبحانه:" وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا"[١١٧] والبركةُ ستحل عليهما معًا من (الله) سبحانه، ف (سعدون) يرسل رسالةً اجتماعيةً قوية في ثنايا شعره، فلا جنونٌ إذن ولا

فقدانٌ للعقل، وأقصرُ طريق لإدامة الأمن والسلام ونشر المحبة والتوافق المجتمعي يكون من أدواته إفشاءُ السلام بين الناس، والعتابُ يأتي لبنية البيت عبر النداء للقريب الذي يحمل التنبيه والتقريب، والتأكيد الذي في بنية البيت والذي يظهره التركيب الخبري (إن السلام...)، وتظهر الجملة (ليس السلام بضائر... ، وليست تحمل قائلا..) براءةً واضحةً للسلام من الثقل أو صعوبة الالتزام به، ومن هذا الذي ابتعد عنه ولم يُعْطِه حَقَّهُ، والنفي ب (ليس) يؤكد هذا بقوة، فما ترك هذا الأمر لصعوبة أو لمشقة وإنما لتعمدٍ وبُعدٍ عن الصواب، وما هذا بقول مجنون أو معتوه، ويتضحُ المعنى الأخلاقيُّ من الشعر هنا، وفيه نرى تصويراً فيه إشباعٌ لحس الشاعر وشعوره، وتظهر البنيةُ التركيبيةُ للأبيات براعةً وإبداعًا يأتي به الشاعرُ، وبلاغةً تتساقط من كلماته" وبقدر ما يكون ترتيبُ الألفاظ وَفْقَ ترتيب المعاني في النفس تكون البراعةُ، ويكون الحسنُ، فالمتكلم البليغُ والأديبُ الجيد، تأتي ألفاظُهُ وَفْقَ ترتيبِ المعاني والأفكار التي تكونتْ في ذهنه ووضحَتْ في عقله"[١١٨].

ولأن عمليةَ الإبداع لا تقف عند سبب معين لوحده، وإنما هي نتاجُ عمليات كثيرة معقدةِ الجوانب، منها شخصيةُ مبدعها، وروح عصره، وتأثره بالبيئة من حوله، وغير ذلك، لذا ف(سعدون) لا يفتأ يطالعنا بما يحوي عقلانية قوية في طيات شعره، ومن ملامح ذلك ما نراه من عتابه لمن يعيب غيره وينسى نفسه، فهذا من التناقض والنفاق وعدم التوافق النفسي، يقول معاتبًا (الطويل):

أرى كلَّ إنسانٍ يرى عيبَ غيره ///// ويعمى عن العيبِ الذي هو فيه
وما خيرُ من تخفى عليه عُيُوبُه ///// ويبدو له العَيبُ الذي لأخيهِ
وكيف أرى عيباً وعيبي ظاهرٌ ///// وما يَعرِفُ السَّوءَآتِ غيرُ سَفِيه[١١٩].

لن يجادل امرؤ (سعدونَ) في عقلانيته الساطعة من شمس هذه الأبيات المضيئة بالدعوة القوية إلى كف الأذى عن الغير عبر التأكيد على عدم جدوى ذكر

معاييبهم، بل يجب على الإنسان العاقل أن ينظر لنفسه أولاً ويحاول سد ما بها من عيوب ونقص ، ومن منا ليست به عيوبٌ، وكأنما (سعدون) يرسل بذلك إشاراتٍ قويةً ودلالاتٍ دامغةً لدحض رأى من يراه مجنونًا، والتأكيد على جنون من يتربص الدوائر بغيره عبر اقتناص معايبه ونواقصه، ولا تخفى بلاغةُ الأساليب في الإظهار لتلك النفس العاقلة التي ترفض هذا الأمر عبر اللوم والعتاب الذي يظهر في (أرى كل أنسان يرى عيبه ويعمى عن العيب الذي هو فيه)، وأيضًا الإنكار التوبيخي الذي يحمله الأسلوبُ الإنشائي في قوله (وكيف أرى عيبًا وعيبي ظاهر)، والنفي في الأسلوب الخبري (وما خير ما تخفى عيوبه، وأيضًا في: وما يعرف السوءات غير سفيه) الذي يؤكد سوءَ من يعيب غيره وهو أحق بالنظر لنفسه أولاً، ولكن أنَّى لمن يفعل هذا؟ وهذا لا محالة شينٌ عظيمٌ، وخطأٌ جسيمٌ، وربما يعكس (سعدون) بأبياته روح عصره؛ حيث كان الزهد وكان هناك المجون، وكان العدل والظلم، وما انتشر في حقبته من أمور متناقضة، حتى إن الجنون والعقلانية قد انتشرا في عصره أيضًا، وما الشعرُ إلا انعكاسٌ لروح العصر والمجتمع والثقافة السائدة، وأيضًا هنا يظهرُ اندماجُ الشاعر في عصره وليس انعزالَهُ عنه، وتطل إجابةٌ مقنعةٌ لتفحم من اتهمه بالجنون، فهو ناصحٌ أمين وواعظ بليغ، وقد قال سعدون:" أنا مجنونُ الجوارح ولست بمجنون القلب"(١٢٠)، وهو قد سيطر عليه حبُّ (الله) سبحانه فلم يعد يأبه لشيء بعده، فهو يقول:" وأنت اغتررت بما اغتر به بنو الدنيا.... وما بي جِنةٌ، ولكن حب مولاي قد خالط أحشائي وجرى بين لحمي ودمي..."(١٢١)، وليس بمجنون أو فاقد للتمييز أوالحكم على الأشياء من يأتي بهذا؛ فمن يجري حب الخالق في دمه هو من أعقل العقلاء ومن أتقى الأتقياء، ولكنه الحب الذي استولى على شغاف قلبه فجعله ينقطع كلية لمحبوبه الأولى والأكثر أهمية.

ويرى (سعدون)، حسبما يصور شعرُهُ، واقعًا كاذبًا وازدواجيةً عليها هذا الذي يترصد عيوبَ غيره ويهمل عيوبَهُ، إنه المجنونُ بعينه، فعالمُ الشاعر الداخلي يكشف عن ظلام دامس يحيط بالمُعيب لغيره، وها هو يرسل إشاراتِ الحيطة والحذرِ منه،

وتعطي الطباقاتُ المتمثلة بين(يرى ويعمى، وتخفى وتبدو) أثرًا بليغًا في التعبير عن حالٍ متناقضة عليها هذا الإنسانُ، وربما تعكس حالاً متناقضةً من الحيرة للشاعر في أمره، هل يعيش بين هؤلاء أم يعتزلهم للأبد؟ فالمعنى في بطن الشاعر ولكن تكشفه كلماتُهُ وتميط اللثامَ عنه بقوة.

ج) شعر الوصف:

وتظهر العقلانيةُ أيضًا وتنتشر أشعتها المضيئة في سماء الوصف لترسلها على القاريء فتغمره بدفء ما بها من عقلانية دالة على وصف قوي متحققٍ، فكيف لمن يصف هكذا أن يكون مجنونًا؟ إنه جنونُ الإبداع إذنٍ، فنظرةٌ واحدةٌ إلى صورة الموت حتى نجده شاخصًا قادرًا على إتيان كل صعب، يقول (سعدون) (من الخفيف):

نَغَّصَ الموتُ وريحُهُ كلَّ طيبٍ ///// ودهاني بفقدِ كلِ حبيبِ
وَلَكَمْ إذ رأيتُ مِنْ حَدَثِ السِّنْ ///// نِ غَرِيراً كغصنِ بَانٍ رَطِيْبِ
أَحَسَّ بالموت فانثَنَى بانكسارٍ ///// وَاضِعَاً خَدَّهُ بِذُلٍّ عَجِيْب
قائلاً إِخْوَتِي سَلامٌ عليكُمُ ///// آذَنَتْ شَمْسُ مُدَّتِي بِالمَغِيْبِ(١٢٢).

إن في الأبيات صورةً واصفةً دالةً لمن كان له عقلٌ أو نظر إليها بعين ناقد مريدٍ لاستبصار الموت، تلك الصورة التي تفنن الشعراءُ الفحول في وضع إطار يجسدها بقوة واقتدار، و(سعدون) هنا يصف أثر الموت القوي في الفقد والحزن، ويركز على أثره في الشباب؛ فهو القادرُعلى مجابهة من يعترضه، أما إذا كان الموت فهو القاهر والمُذِلُّ والهادمُ للذات الشباب وعنفوانه، وتشير الاستعارتُ التشخيصية إلى ذلك الزائر البغيض عبر قوله: (نغص الموت – دهاني – آذنت) وأيضًا يأتي التجسيم في قوله:(ريحه – أحس بالموت – شمس مدتي) فهو يجعل من الصَلْبِ لينًا ومن اليافع عجوزًا، فالمعاني التي تكشفها الأبياتُ تنم عن عقلانية قد لا يؤتها العقلاءُ حين يصفون

الموت؛ فالصورةُ مفعمة بالحزن والانكسار، وربما هذا ما يسقطه الشاعرُ ليبينَ عن حالة هو عليها في حياته من الذلة والانصراف عن الغير والحياة بصورة عامة.

ومن يستطع لهذا الوصف الشعري سبيلاً فهو قاصدٌ له متمكن منه، وليس فاقدًا لعقله أو حتى قريحتِهِ الشعرية، فها هو الخيال يحلق في سماء الأبيات ليزيد من حرارة التجربة والعاطفة المسيطرة على (سعدون)، وحالة من الحزن والرهبة من هذا الذي يثني العودَ القوي اليافع ويذله تسيطر على الشاعر، وربما يسقط شاعرُنا هذا على الجنون الذي عليه العقلاءُ من تركهم الاستعداد للموت وعدم انتباههم لخطواته القريبة منهم، إنها رؤيةٌ عميقة لباطن هذا الموت ووصفٌ قوي مؤثر يؤتي أُكلَه؛ فالوصفُ أوجز فيه (سعدون) وأبلغ، وإن" أبلغ الوصف ما قلب السمعَ والبصر، وكان أصل الوصف هو الكشف والإظهار، يقال: قد وصف الثوب الجسمَ إذا نَمَّ عليه ولم يستره"(١٢٣)، وطريقُ الوصف الجيد هنا لا شك في أهمية وجود العقل للوصول إليه، فإن كان الناس لا يرون من (سعدون) ظاهريًا إلا جنونه، فإنهم يرون عقلانيتَه الداخليةَ المتقدة عبر شعره ذي المنطق القوي والتأثير البليغ؛ فبتصويره الجيد للأشياء يظهرُ ويتضح ذلك العقلُ الوقادُ الذي يقبع في ثنايا رأسه العجيب، فهو كما قال (ابن عربي) عن الجنون والمجانين:" إن جنونهم ما كان سببَه فسادُ مزاج عن أمر كوني من غذاء أو غير ذلك، وإنما كان عن تَجَلٍّ إلهي لقلوبهم، وفجأة من فجآت الحق، فاجأتهم فذهبت بعقولهم، وعقولُهُم محبوسةٌ عنده، منعمة لشهوده عاكفة في حضرته، منزهة في جماله، فهم أصحابُ عقول بلا عقول، عرفوا في الظاهر بالمجانين أو المستورين عن تدبر عقولهم، فلهذا سُمُّوا عقلاء المجانين"(١٢٤)، وذلك لامتلاكهم العقل القادر على التمييز والحكم على الأشياء بل والفهم الجيد لمجريات العصر وقضاياه الشائعة.

إن الوعيَ شيفرةُ العقل، وأيُّ وعي! إنه الدلالة الدامغة والحجة والبرهان على ذلك العقلِ الذي يتأملُ ويصِفُ ما يعترض له من أمور يعجز الكثيرُ عن وصفها، وهذا نوعٌ من التأمل القوي لبواطن الأمور والقدرة على استشراق ما بها، وهذا لا يمتلكه حتى

العقلاءُ من الناس أحيانًا، فإنه" ثمة فرق بين الوعي والتأمل: فالوعي عام ومشترك بين جميع الناس في كل الأزمنة بَيْدَ أنه لا يكف بذاته؛ لأنه يقدم أفكارًا واضحةً متميزة عن العمليات التي نعيها وعن العلاقات المتبادلة، أما التأملُ فإنه ليس عامًا ومشتركًا بالنسبة للجميع، وإنما هو من نصيب القلة منهم، إذ أن القطاع الأعظم من الناس لا يتأملون عملياتِ عقولهم بصورةٍ حدسية"[١٢٥]، و(سعدون) هنا كان من تلك القلة التي كانت ذات وعي كامل بالحقائق، وما وراءها أيضًا، وليس بأدل على ذلك من وصفه القوي للموت وما يفعله، إنه الحركة الدائبة في كل ساكن، والهادم لكل ملذات الحياة، وهو غروب شمس الحياة لمن تأتي أشعته عليه، فالعقل إذن طريق (سعدون) لإيضاح تلك الصورة، فما بداخل جوف الجنون هو العقل الذي ينتفض إذا ما استدعى الأمرذلك، فالوعي بصورة الموت هو وصف جيد وتشخيص فعال له.

ووصفُ الرزق الذي وعد به (الرحمنُ) (سبحانه وتعالى) والاهتداء إلى هذا والإيمان به هو إحدى صور العقل المُدْرِك لحقيقة وجود الله (عز وجل)، وهذا ما يمثله قول (سعدون) حين أشار لهذا (من الوافر):

أتتركُني وقد أيقنتُ حقا ///// بأنك لا تضيع من خَلَقْتَا
وأنّك قاسمٌ للرزق حتمًا ///// تؤدّي ما ما ضَمِنْتَ وما قَسَمْتَا
وإني واثقٌ بك يا إلهي ///// ولكن القلوبُ كما عَلِمْتا[١٢٦].

تعد كلماتُ الشاعر آلةً قويةً لإنتاج تقنياتٍ تعبيريةٍ ذات طاقة إيحائية قوية قادرة على عكس نظرة الشاعر الصادقة للرزق وكونه شيئًا بيد (الله) سبحانه، إنها تأكيد لقاعدة يؤمن بها العقلاء، و(سعدون) منهم، ألا وهي الثقة العمياء في الرزاق ورزقه، ولِمَ لا؟ وهو الذي أقر ذلك وذكره في تنزيله الكريم، ومن هذه المواضع قوله:" مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ"[١٢٧] وغير

ذلك في مواضع عدة[١٢٨]، وهذا دليل نفي قوي لمن ادعى جنون سعدون، فكيف لـ(سعدون) بمعرفة أمور ترتبط بالعقل بقوة.

ولطالما دلل شاعرُنا على نفسه السوية وعقله الواعي، فهو يناجي ربَّه ويذكر فضلَهُ في ملمح دال قوي، ألا وهو الرزق والفضل منه (سبحانه)، وهو بهذا يعي جيدًا فضل (الله) سبحانه وإحسانه، ويظهر ضراعةً وتبتلاً وخشوعاً له سبحانه، ومن يلجأ لهذا لابد أن يكون ذا عقل يلجأ إليه، وهذا العقلُ يملك منطقًا ينكمش الجنونُ ويتوارى أمامه وهو ذليلُ، وتظهر بصيرةُ (سعدون) في الرؤيا التي ترسلها أبياتُهُ لتكشفَ عن قلبٍ يملأه الإيمانُ والخشيةُ من الخالق المبدع سبحانه، وتبرهن على وصف دقيق مثقل بالإيحاءات والدلائل القوية، ولا تخفى اللغةُ السهلةُ الواضحةُ التي تعكس قلبًا واضحًا متعلقًا بخالقة ملتزمًا بما أمره به، ويأتي الأسلوبُ الإنشائي (أتتركني...) ليفيد النفي والتأكيد على عدم ترك (الله) سبحانه لعباده، وكيف يكون هذا وهو الذي تكفل بهم وبحياتهم وما يتعلق بها من جوانب شتى؟ ولن يعي هذا ويصوره إلا من كان مبصرًا ببواطن الأمورعاقلاً لها.

وها هي (الجنة)، تلك التي وعد (الرحمنُ) بها عبادَه المتقين يذهب (سعدون) بخياله، وما وقر في ذهنه من القرآن ليصورها لنا، وكيف هي تخلب الأنظار بما بها، يقول (من مجزوء الخفيف):

قُبةٌ من جواهرِ الخُـ ///// ـلد بالدُّر رُصِّعَت

جوفُ قَصْرٍ من الزَبَر ///// جَدِ بالنور وُشِّعّت

مُذُّ بناها الجليلُ في ///// داره ما تَزَعْزَعَت

لو عليها تساقطتْ ///// أرضُها ما تَصَدَّعَت

حُجِبَت كَاعِبٌ من الـ ///// حُورِ فيها فَأَبدَعَت

عَجِبَ الحُسنُ والجَمَا ///// لُ إذا ما تَطَلَّعَت
مُتِّعَ الحِبُّ بالحبيـ ///// ـبِ كما قد تَمَتَّعَت[١٢٩].

لو أن عاقلاً من غير الشعراء قيل له: صف الجنة وما بها لَمَا استطاع لذلك سبيلاً كما أتى (سعدون)، ولكن الأمر عند (سعدون) لا جدال في القدرة عليه ببراعة؛ فجنونه فاق عقلَ غيره، فمعالمُ العقلانية تشع بقوة من الأبيات، فهو يمنحه مساحةً واسعةً من الرؤية المتفردة بلا مِراءٍ، فهو يصف الجنة وقد رُصِّعَ بناؤها فيها بالأحجار الكريمة التي تشبه الزمرد الأخضر، وغطتها الحليُّ والزخارفُ، وهذا عن بنيتها الخارجية المرئية للناظر إليها، أما عن الداخل فالسكن والمودة والبهجة والاتساق النفسي؛ فكأنه يعكس ما عليه هو نفسه فإن كان الجنون مرئيًا منه لمن حوله إلا أنهم لا يعلمون داخله المرصع بالعقلانية والمنطق، فيا له من إسقاطٍ قوي يعبر بقوة عن تناقض عليه كل الأمور، فالمتناقضاتُ كامنةٌ دائماً في كل شيء، ونظرةٌ متأنية إلى طرفي الوصف: الداخلي والخارجي، تعكسُ رؤيةً ثاقبة ونظرةً مرتبة مبني عليها هذا الوصفُ، تمامًا كالفراغُ والامتلاءُ الذي عليه عقل (سعدون) فراغٌ خارجي يراه عليه الناسُ، وامتلاءٌ داخلي بالعقلانية تعكسُهُ أبياتُه، فالجنونُ اعتمدَ حقائقَ دالّةً على عقلانية متحققَةٍ عبر انتصار العقل عبر تأمل نافذة الجنون المطل منها، أقصد أبياته الشعرية هنا، فالعقلُ الواصفُ لبواطن الأمور بقوة يقبع بين ثنايا الجنون، فهناك" جنونٌ أكثرُ عموميةً من كل أشكال الجنون الأخرى، جنونٌ يسكن في نفس المكان الذي يسكنه جنونُ الحكمة الأكثرعنادًا"[١٣٠]، وهذا الجنونُ الملهمُ يفصح عن عقلية حكيمة لا تركن لجنونٍ أو تعتمد على عقل مهتريء بل يصنع إبداعًا يزن الأمورَ بعقل ويعضده خيالٌ يطير بجناح الواقع المعبر حين يصف الجنة وما فيها، ويا له من وصف موجزٍ!

والجنةُ يكثر وصفُها شعرًا عند عقلاء الشعراء لكن يندر وصفُها عند المجانين منهم، ومن هؤلاء (سعدون)؛ فكيف له بوصف جنة الخلد، إن له قلباً نابضاً يهييء له لحظاتِ نورٍ تكتنفُ عقلَهُ إذن، فلحظاتُ الجنون تمكن (سعدون) من تخطي ما ورائيات

العقل، فأصبح الجنونُ طريقًا ممهدًا يسير عليه الوصفُ ليفصح عن عقل معبر يعي ما يقول، ويؤمن بقوة الكلمة في رسم صورة يراها العقلُ لما يريد تصويرَه كبديلٍ عن الجنون الظاهر عند صاحبه، فالوصفُ في الشعر لا يأتي جزافًا أو مصادفةً؛ فهو نتاجُ صراعِ ما بين عقل ناطق وجنون كامن واستناد لحقائق تحملُ البرهانَ والصدقَ، فالعقلُ ينتج جراء" انغماسه في الجنون وبزوغه الجديد، إنها تستند [الحقائق في شعر الوصف] إلى قيمٍ أو بالأحرى إلى قيمة للعقل مروَّضَةٍ منذ البداية ... فانخراطُ العقل انخراطٌ كليٌّ داخل هذا التقابل البسيط والمتغير للجنون، ولكنه ليس كليًّاً إلا انطلاقاً من إمكانٍ خفيٍّ لانفصال كلي"[١٣١]، فالجنون هو الطريقُ للإبداع أحيانًا لا سيما في أمور الشعر ومخالفة الواقع.

وإذا تمَعَّنَا في الوصف الشعري عند (سعدون) وجدناه مدعاةً للعُجْبِ والإنكار القوي للجنون؛ فهو حين يصف (الحورَ العين)، كمثال وصفي، نجده يصور ذلك كأنهن شاخصاتٌ أمامه، وما هذا بكائن لولا العقلُ الذي أمده الجنونُ لديه بما لا يمد به العقلاءَ، يقول واصفًا (من الوافر):

تَفَهَّم يا أخي وصفَ المِلاحِ ///// وقد ركبوا النجائبَ في الوِشَاحْ
من الحُورِ الحِسَان منعماتٌ ///// تفوقُ وجوهُهَا ضوءَ الصباح
بَراهُن المهيمنُ من عبيرٍ ///// وشَرَّفَهُنَّ حقاً بالفلاح
فها أنا واصِفٌ منهنَ حُورًا ///// منعمةٌ مُذَلَّلَةٌ رداحُ
بِشَعرٍ فاحم رَجُلٍ أنيقٍ ///// وطرفٍ سحرُهُ للقلب لاحَ
وصدغ فوق سَالِفَةٍ بِمِسْكٍ ///// كَمَشْقِ النُّونِ في رِقٍّ مُبَاحْ
إذا خَطرَتْ تَحَيَّرَ كُلُّ حُسْنٍ ///// وإن مَرَحَتْ فأَهْلٌ للمَرَاحْ
تقول إذا أتت نحو العذارى ///// ألا يا خَوْدُ[١٣٢] هل حُبِّي بِصَاحْ

فقد نَـغَّصْنَ لذاتي جميعاً ///// وأَعْدَمْنِي هواهَا شُرْبَ راحْ[١٣٣].

وصفٌ دقيقٌ للحور العين أحدُ مظاهر الجمال والوعد الحق لمن كانت الجنة مأواه، وهذا الذي أتى به (سعدون) ذلك الذي لم يحجب عنه جنونُه إبداعًا قويًّاً داخله فانطلق عقلُهُ يصحبه الجنونُ ليفارق المعتاد في تصوير هؤلاء اللائي كَثُرَ الوصفُ لهن، إنهنَّ الحُورُ العِيْنُ، ويعقد الخيالُ مصالحةً مع الجنون ليعليا رايةَ الوصف الذي ينم عن عقل يختزنُ صوراً ما أجملها! وتتداخل الأوصافُ في تَسلسل منطقي لرسم تلك الصورة الرائعة، فتجمع الصورةُ بين جانبين عليهما معاييرُ الجمال: الجمالِ الجسدي، والروحيِّ، وأما الجسديُ الظاهرُ فمتمثل في وصفِ الوجوه والشعر والأصداغ، وهناك التنعمُ والدلال اللذين يظهران عليها إن خطرت أو مشت أو نظرت، وأما الروحي فنجده بارزًا في قوله: إن مرحت فأهل للمراح وأيضًا في: تقول: ألا يا خود هل حبي بصاح، في إشارة منها لاهتمامها بزوجها ورفيقها في الجنة، وما هذا الوصف بكائن إلا في ذهن عاقلٍ ولسان شاعر يعزف على أوتار الشعر بقوة واقتدار، إنها نوازعٌ تحركه، ومؤثراتٌ تثيره وتحرك إحساسَه، وهو يستنبط منها مجموعةً من المعاني التي يتحرك لها وجدانُهُ ويعمل على إدخالها في إطار نفسيته وخياله[١٣٤].

و(سعدون) هنا يأتي شعرُه لتجربة تأثرَ بها، تماماً كغيره من عقلاء الشعراء، فوصفُهُ قد أتى على جمال مشاهد عبر الحواس، وهذه صورُه الشعرية الجيدة التي بها يتحول البعيدُ الغامض إلى المرئي المحسوس، وربما عملَ الجنونُ الذي عليه (سعدون) على اختراق حُجُب العقل ليرى صورةً جيدةً عليها الحورُ العين، ويعمل وصفُهُ على التشوق لرؤية هؤلاء اللائي يتصفن بهذه الأمورِ الجميلةِ الخلابةِ، وربما في وصفه يعكسُ حالةً من الحرمان التي يعانيها اجتماعيا وعاطفياً؛ فهو قد التهبتْ ذاتُه ووجدانُه حتى امتزج الشوقُ للمرأة عنده بصورة هؤلاء الحور العين، فكأنه يسقط حالة من الحب التي عليها لمحبوبة لم يفصح عنها، وهذا طريق يظهر عليه عقلٌ واع وقلبٌ نابض بالحب والشوق يجعله يبدعُ في رسم صورةٍ لتلك المحبوبةِ، والنسيجُ المسبوك بقوة في

الوصف ينتصر للعقل بقوة؛ فالنصُ يترك أثرًا قويا في ذهن صاحبه حول هؤلاء الحور العين، وقد سبق (سعدون) إلى هذا الأمر حين قال: فقد نَغَّصْنَ لذاتي جميعا وأعدمني هواها شربَ راحْ، ليصف بهذا التأثير القوي للحور العين السالفاتِ الوصف في أثر من يطالع صورَهن؛ فلن يجد مثيلاً لهن فتتكدر حياتُه ولا يقرب ما لذ له وطاب بعدهن، وما هذا إلا لصورة قوية عليها هؤلاء تأبى أن تجد لها مشابهاً في حياتنا التي نحياها.

إن هذا الوصفَ يظهرُ صاحبُه (سعدون) على خلاف فاسدي العقل أو من ضاع منهم القيادُ لعقولهم لفسادٍ أو عدم قدرة على التعبير المصيب لمعانيه المرادة، فالجنون إن كان هنا فهو الإبداعُ القوي لوصفٍ يجلي حقائقَ الأمور ويكشف عنها بقوة وتمكنٍ، وأحسنُ الوصف ما كان صورةً واضحةً للسامع، وقد أشار لهذا(قدامة بن جعفر) حين قال: الوصفُ إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الهيئات والأحوال، وكان أحسن الشعراء وصفًا من أتى عدة معانٍ للموصوف، وهو مركب منها ثم يصوره بما فيه من تلك المعاني حتى يصوره للحَسِّ بها...[١٣٥]، إنه يرى أمورًا لم يكن العقلاء من حوله ليرونها؛ لامتلاكه عقلاً يقرب له هذه الصور عبر الخيال القوي فتضحى الأشياءُ البعيدة الغامضة ظاهرةً واضحة، فالجنةُ وإن كانت لا ترى بالعين في حياتنا الدنيا إلا أن الصور(القرآنية والشعرية) تقربها لنا، وجنون (سعدون) يساهم في إيضاح هذه الصورة عبر ذكر البناء والحور العين بداخلها، فشوائبُ العقلانية قد طفت على سطح الجنون طافحة بالتصوير القوي لتضع لنا صورة قوية يراها (سعدون) وما هذا بجنون؛ إنه الإبداع بعينه والذي يتجاوز أفق الرؤية المجنونة إلى منطق العقلانية التي لا تُنكَر بالنظر للأبيات وطبيعة الوصف بها، فهو قد اتخذ العمقَ والتحليلَ القويَّ أساساً له، وما هذا بقادر عليه إلا من انتزع الصورةَ من مصادرها المؤكدة لها هنا، وهو القرآن، فنجده يصفهم بقوله:" حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ"[١٣٦]، وقوله:" وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[١٣٧]، ف(سعدون) توحي صورتُهُ الرائعة بالكثير من الدلالات كونها

مقتبسة لأصولها من (القرآن الكريم)، وهذا يقوي من رؤية (سعدون)، وعقلانيته، ويبتعد به عن ذلك الجنون المخزي الذي لا يفيد صاحبه بشيء سوى الخزي، ونفور الآخرين منه.

وجنوحُ العقل هنا لا يعني الجنونَ المعروف؛ إنما هو ارتدادٌ لسهم العقلانية وانطلاقه من قوس الجنون ليخترقَ حُجُب العقل ليصور أمرًا لا يستطيع الكثيرُ من العقلاء الإتيانَ به ولو أوتوا علمًا كثيرًا، فالإبداعُ الشعريُّ أحيانًا يظهر في لغة تمتلك مقوماتٍ غيرَ لغة الحديث والتفاهم المعروفة عند عقلاء الناس(١٣٨)، ولغة (سعدون) كانت واضحةً جلية تعكس شوقًا دفيناً لهؤلاء الحُورِ اللائي يعدَّن إحدى مباهج الجنة ونعيمها.

وصدقُ الذات والتعبير عنه بقوة يظهرُ عند (سعدون) في دعوته لنفسه، والآخرين معه، إلى ترك هذه الحياة والدنيا الفانية، والإقبال على (الله) سبحانه والالتجاء إليه دومًا، يقول (من الخفيف):

ومن الناس من يعيش شَقِيًّاً ///// جاهلَ القلب غافلَ اليقظَهْ

فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ ///// حَفِظَ الوقتَ واتَّقَى الحَفَظَهْ

إنما الناسُ رَاحِلٌ ومُقِيْمٌ ///// فالذي بَانَ لَسَقِيمُ عِظَهْ(١٣٩).

إن ما ينافي العقل أو الصواب من الأمور أو الأشياء لن يجد طريقه سهلاً لعقل صاحبه؛ فما لا يُدرك ويفهم لا مكان له على طاولة العقل أو اللسان، فلن يُقبَل أو يُنطَق به، وإذا ما كان المجنونُ هو من يأتي هذا فالبعد أقوى، والفشل أشد، ولهذا فبالنظر إلى الأبيات التي تحمل صورة عليها حياةُ المرء بين الوجود والغياب، وجودٌ بالعقل واليقظة والاحتراس، وغيابٌ بجهل القلب والغفلة، والرحيل إلى موارد الهلاك لا البعد عنها نبصرُ كَمْ كانت عقلانيةُ (سعدون) لا جنونه الذي لحق به خطأً؛ فتقسيم الناس لصنفين متناقضين: راحل ومقيم، وأيضًا: غافل وحافظ، وثالث إلى: جاهل ووفي

إنما هي مفاهيم تواصلية يدركها شاعرُنا عن الحياة التي إما أن يقبل عليها المرءُ أو يوليها ظهرَه، إذن تلك فلسفتُه، وهي لا تتنافى مع العقل والمنطق السليمينِ، إذن توجدُ مقصديةٌ لتلك الأبيات، فالعقلانيةُ وراءَهَا إذن، فإبداعُ الجنون هنا إبداعٌ بديلٌ؛ ف(سعدون) يبعد جنونَه عنه بإبداعه هذه الأبيات المعبرة، وشتات جنونه المتناثر داخله تجمعه أبياتُه المترابطة، وهكذا تنعكس عقلانيتُه في مرآةِ جنون أبياته التي تكشفُ عن تجربة شعرية، وامتزاجٍ بالوجدان المسيطر الراغب في رؤية هؤلاء الحور العين، وهذه أسبابٌ وجدانية صعبةُ الاكتشاف إلا عن طريق فهم الأبيات التي تعبر عنها، وهذا يعكس تفردَه بنظرة في بواطن الأمور عن غيره من العقلاء بل والشعراءِ منهم، وهذا يدل على تفرده وأنه بالفعل عاقل مبدع، وإن إبداعه شذوذٌ عن الجنون المعروف؛ فإنه" قد يطلقُ الجنونُ على الشذوذ [الخروج عن المألوف]، والوسوسة والحمق والخبل والهذيان والتصورات أو كل ما يخالف الصواب أو يجاوز حد الاعتدال"(١٤٠)، وما أتى به (سعدون) هنا لا يعد مخالفةً للصواب أو هذيان أو وساوس؛ فإن هذه الأمورَ معروفةٌ ومذكورةٌ لا سيما في (القرآن الكريم).

إن العلاقةَ بين الإبداع والجنون علاقةٌ خاصةٌ؛ فهي ترتبط بالناحية النفسية وسلوك الفرد المتصف بها، والجنونُ يكون أحيانًا طريقًا لتحرر العقل من عقاله، وبذلك ينطلقُ إلى أفقٍ لا نهائيٍّ من كسر للحواجز التي تعتري العقلَ العاديَ، فيتعالق الخيالُ بالجنون لينتجا إبداعًا متفردًا لا حدود له؛" فالمجنونُ هو إنسان الخيال الذي يناقض إنسانَ الذاكرة، وهو الفوضى وسط النظام والجنونُ الذي يرفد العقلَ بالصحة، والنظام بالمرونة والحياة، هو الذي يرغم المؤسساتِ والقوالبَ على الحركة"(١٤١)، وهذا الإبداعُ لا غرابة فيه؛ فهو رصدٌ لحقيقة الأمور، وشهادةٌ دالةٌ على التميز والتفرد، فالإبداعُ تلقٍ فاعلٌ ناتجٌ عن تنشيطٍ مثارٍ، فهو إذن تجسيدٌ للمفاجآت التي تخطر على العقل في صورة تجسدها كلماتٌ ورسائلُ تحتويها هذه الكلماتُ، ووصف (سعدون) لرحلة الإنسان هنا، وما يعتريه فيها بين الحياة والموت وصف ناتج عن صلةٍ، فهو قد أنتج شعره

استنادًا على عقل يسير على طريق ربما يكون محفوفًا بالجنون، ولكنه ليس الجنون الذي نعرفه ونلاحظه في منافاة الواقع، ومجافاة المنطق، وهو يعبر به عن رؤية مغايرة قد لا تتفق أحيانًا مع ما يأتي به العقلاءُ، وهو بتركيبه اللغوي يرسل إشاراتٍ ذاتَ أبعادٍ فلسفية تدعو الإنسانَ إلى اليقظة والانتباه وعدمِ الانسياق وراء المهلكات من الأمور.

والعقلُ المتحررُ من سجون الواقعية والمحلقُ في سماء اللا حدود هو القادرُ على وصف الدنيا وزوالِها المحتومِ في إيجازٍ دال وشعرٍ بليغٍ، وهذا ما أنتجه (سعدون) في بيتيه حين قال (من الخفيف):

أيها الشامخُ الذي لا يُرَامُ ///// نحن من (طِيْبَةٍ) عليك السَّلامُ

إنما هذه الحياةُ متاعٌ ///// ومع الموتِ يَسْتَوي الإِقْـدَامُ[١٤٢].

يخترق الإبداعَ الجنونُ ويحطم قيودَ العقل ليجعل صورة الحياة مؤكدة بقوله: هذه الحياة الدنيا متاع، وهنا، فالجملةُ الخبرية لا تحتاج إلى مؤكداتٍ؛ لمعرفة الجميع بطبيعة هذه الدنيا، فهي مثال مرئيٌّ حيٌّ نجد فيه البقاءَ والرحيل والمتعَ والنقم، والموتُ حين يأتي يتساوى أمامَهُ الإقدامُ والرجوعُ، فهو سيقضي عليهما بلا رجعة لأيٍّ منهما، وكيف لمجنون أن يدرك هذا! وقد فطن إلى الحياة الدنيا كما صورها (القرآن الكريم) وصورها بالمتاع، وقد وصف (سبحانه) الحياةَ الدنيا في أكثر من موضع في كتابه الكريم بأنها متاعُ الغرور؛ لأنها تغرُّ العباد بالمغريات، وتغرر بهم إلى طريق الشهوات، ومن ذلك ما في قوله:" وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"[١٤٣]، وبين موقف الناس منها بأنهم يفرحون بها، مع أن حقيقتها لا تستدعي هذا الفرحَ، كونها مجردَ متاعٍ سرعان ما يفنى ويبلى، وهذا ما يستدعي عدمَ التعلق بها، والأخذَ للحذر والتيقظ منها، كما في قوله تعالى:" وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع"[١٤٤]، ويقرر (القرآن الكريم) أن الحياة معبرٌ للآخرة، وأنها لا تعدو كونها مقراً مؤقتاً للعمل، وداراً للابتلاء والاختبار لتمييز الصالح من الطالح، والمصلح من المفسد، والطيب من الخبيث، يقول (سبحانه) في تقرير هذا المعنى: " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ "[١٤٥]، فهو يجعل الدنيا وسيلةً للآخرة، ويجعل الآخرةَ عاقبةً لأعمال الدنيا، فلا طغيانٌ لإحداهما على الأخرى؛ فقد وائم بين مقتضى العقل وحاجة العاطفة، موقف لا يقدم الدنيا بإطلاق ويُنكر أمر الآخرة، ولا يقدم الآخرة بإطلاق ويلعن الدنيا وما فيها من طيبات وخيرات، بل يأخذ من هذه لتلك، لذا يخاطب (سعدون) ذلك المتكبر الذي يتوهم أنه لا مثيل له ولا غِنَى عنه لغيره، (يا أيها الشامخ) الذي غرضه التحقير هنا لذلك يذكره بأنه من (طيبة) مقام (المصطفى) (صلى الله عليه وسلم).

ويذكر (سعدون) في بيته ما يضيفُ رونقًا خاصًا عليه عبر اقتباسه من القرآن الكريم، وفي هذا توكيدٌ وبرهان على كلامه؛ فهو ليس محضَ افتراء أو تأويل بل حقيقةٌ ثابتةُ، وهذا ما يكسب الأمرَ صدقًا وقوةً في التأثير، ومن ظن أنه ليس كغيره تكبرًا منه وفخرًا فلينظر لما أثبته (المجنون) فهو يذكره بأن الإقدام والإقامة للشيء متساويان، وهذا يبرهن على زوال الجميع دون تمييزٍ، وربما يعكس ببيته امتلاكَ العقل وعدمه، أو هو يريد الرحيل أو الإقامة، أو الثبات والحركة أو الدنيا والآخرة، فكلها متناقضاتٌ تشير إلى الحال المعكوسة التي عليها كلُّ شيء، أو الجنونُ الذي اتهمه البعضُ به ونفيه هو لذلك بشعره، ولا تخفى بلاغةُ الأساليب الخبرية في البيتين في تأكيدها على الثوابت التي تحتويها، والتشبيه (الدنيا متاع) والذي يشير لقصرها وتحولاتها غير المأمونة، فالشاعر يوصلُ فكرته هنا عبر صورة تشبيهية موجزة فيُحْدِثُ بها تركيبًا قائمًا على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر المطلق من عالم المحسنات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى، في إطار مؤثر يُوقِظُ الخواطر والمشاعر في الآخرين[١٤٦]، وهذا لن يكونَ إلا تعبيرًا عن عقلانية تعي ما تقول، فالجنونُ إذن يصنعُ قراءةً إيجابيةً تترك أثرًا قويًا في ذهن القاريء لما به من تعبيرات إيحائية تستنهض همته وتؤكد داخله على مجموعة من القيم والأفكار والثوابت، فالموتُ وقصرُ الحياة أمرانِ يدعوان، كما يشير (سعدون) ضمنًا، إلى التواضع وعدم التكبر والفخر.

وفي وصف الجنة يبدعُ (سعدون) في وصف ما بها من الجواري الحسانِ، يقول (من مجزوء الخفيف):

إن في الخُلد جارية ///// هي حُسْنُ كما هيه
لو تراها على النما ///// رقِ بالغُنجِ ماشيه
لتمنَّيتَ أنها ///// لَكَ ما عِشْتَ باقِيَه
كَتَبَتْ في شَقائقِ الـ ///// خُلدِ سَطرًا بِعالِيَه
أنا للزَّاهد الذي ///// عَيْنُه . الدهر . باكيه[١٤٧].

طرديةٌ هي تلك العلاقةِ بين الإبداع والجنون عند (سعدون)؛ فالجنونُ هو طريقُه المعبدةُ للإبداع والوصف القوي لما يقر في ذهنه، إنه يفيءُ علينا بشيء مُعجِبٍ؛ فهو يأتي بصورة الحور العين ولا يسلط هنا، كغيره، سيف وصفه على رقبة الوصف الحسي بل يرنو إلى تأكيد جزاء الزهد والعبادة (لله) سبحانه وتعالى، ويخلع على (الحور العين) هنا صفاتِ الجواري الحسان كي يقرب نوالَهن لمن يزهد وينصرف عن ملذات هذه الحياة الدنيا، ولا تخفى ألفاظُه ويسرها ووضوحها، فكأنها تعكس جمالَ الحور ووضوحَهن القوي، وهي نابعةٌ من إيمان قوي بكونهن جائزةً كبيرةً لمن زهد، ومكافأةً له من (الله) سبحانه عليه، لذلك انسالت ألفاظُها وسهلت، وإن" الذي تجود به الطبيعةُ وتعطيه النفس سهوًا رهوًا مع قلة لفظه ووعد هجائه أحمدُ أمرًا وأحسن موقعًا من القلوب.... فالكلمةُ إذا خرجت من القلب ووقعت في القلوب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان"[١٤٨]، ونظرة واحدة للأبيات نجد أن الصدق قد اكتنفها بقوة؛ فالأبيات لا غلو فيها، وتتوافق مع ما جاء في الذكر الحكيم، لذا تجد طريقها سريعًا للقلب والنفس دون واسطة، وتكشف عن عقلانية تلمع بين ثنايا عقل واع يدرك حقيقة الأشياء بل وتقريب ما بَعُدَ من هيئتها عبر صورة لا تنفر منها العقولُ ولا تَمَجُّهَا الأسماعُ.

وصور (سعدون) الشعريةُ، وذلك في أغلب ما أتى به شعرًا، لا تكون إلا نتيجة فكرٍ راق لا يتأتى إلا لعاقل متزنٍ يطرح روءَاه ما غَمُضَ، ويدافعُ عنها فيسلكُ أوضح الصور لإظهارها، إذن لا وجود هنا للجنون في سماء تلك الصور العقلانية للشاعر، تلك التي يفترعها من المعاني السانحة أمامه، وهنا في صورُ النعيم في الجنة حين يصفها (سعدون)، إن جنونَهُ العاقلَ يقودهُ لاستنطاق صور غاية في الصدق والعقلانية، فالجنونُ نصيفُ العقل أحيانًا، ولِمَ لا؟ فعقلُهُ يدركُ حجمَ الكلمة وتأثيرَها القوي؛" فإن العقلَ الحقيقي ليس خالصًا من كل تواطؤ مع الجنون، إن الأمر على العكس من ذلك، فعلى العقل أن يسلك السبيل نفسها التي يرسمها له الجنونُ"[١٤٩]، فما الجنونُ إلا عقل متفرد برؤية ثاقبة بها يرى ما لا يراه الآخرونَ بعين خاصة.

وليس الموت ببعيد عن صورة قوية تجسده عند (سعدون)، فالتأثيرُ في المتلقي طريقه المعبد؛ فالبعث والموت من قبلِهِ ترصدُه بقوة صورةُ العقلانية الماثلةُ في ثوب الجنون في قوله (من مجزوء الوافر):

إلا يا عَسكرَ الأحياء ///// هذا عَسْكَرُ المَوْتَى

أجابوا الدعوةَ الصُغرى ///// وهُمُ منتظروا الكبرى

تَحُثُّون عَلَى الزَّادِ ///// وما الزادُ سِوى التقوى

يقولــون لكم: جِدُّوا ///// فهـذا غايةُ الدنيـا[١٥٠].

كثيرٌ من الرجال يراهم الناسُ مجانينَ نتيجةَ أفعالٍ يفعلُونها تبدو لغيرهم بأنها ضربٌ من الجنون، ولكنهم على الرغم من نظرة الناس إليهم عاقلونَ حكماءُ، ومنهم شاعرنا (سعدون)، الذي يصف موازنةً قويةً بين الأحياء والأموات، ليخبرَ من ينساقون وراء دنيـاهم الزائفـةِ أنهـا تـوردهم مـواردَ الهـلاك، فتـأتي أسـاليبُه المتنوعـةُ: ألا يـا عسكر....، وقوله: جدوا، والتي كلها تفيد التنبيهَ والحث على الحذر، والترغيب للزهد

في الدنيا، والابتعاد عن موارد الهلاك، وأساليبه الخبرية في قوله: هذا عسكر الموتى، وهم منتظرو الكبرى، وهذه غاية الدنيا، كلها هنا تفيد التقرير والتنبيه إلى ضرورة السعي والجد، وتأتي عباراتُه: الدعوة الصغرى، وهي كناية عن الموت، والدعوة الكبرى وهي كناية عن يوم القيامة، وتنفيذ الصغرى وانتظار الكبرى مقابلة تصنع جمالاً يبرز التناقض بين الحياة الفانية والباقية، وكذلك الموت والحياة، واستحقاقُ الكبرى للانتظار لتكون المكافأة، واستعارتُهُ التي يخبر فيها أن الأمواتَ يقولون للأحياء بأن عليهم السعيَ كي يكونوا من الفائزين يوم القيامة، لأن هذه غاية الحياة الدنيا، وهذه الأمورُ كلها لا يعقلها إلا من كان له قلب وألقى الجنون أرضاً، وأضحى العقل على أفعاله شهيدًا، ولذا ف(سعدون) تنطق أبياتُه هذه بالكثير والكثير لتؤكد عقلانيته ووعيَهُ.

إن العقلَ قد أضحى الجنونُ له دعامةً قويةً تقيه انسدادَ شرايين تفكيره، وتمده بالأفكار والمعاني التي تشهد له بالتميز والقوة، والمقابلةُ هنا بين الجنون الظاهري الذي ترسَبَ في عقول الناس عن الشاعر والعقلانية التي تبدو من خلف الكلمات الشعرية له تخلق إبداعًا متفردًا؛ فالصدقُ يشع من ظلال أشعة الكلمات الشعرية التي تصف حالةَ الأحياء والأموات، هذا راحلٌ وذاك مقيمٌ، وما زادُ المرء في رحلته الطويلة إلا التقوى، وهذا يأتي تأثرًا بقوله:" الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"[١٥١]، فلحظاتُ الجنون التي تفسح الطريقَ للعقلانية الواعية تطرحُ العباراتِ وتتخطاها إلى ما وراءَها لتفيء على العقل بما يعززُ وجودَه ويشيرُ إليه بقوة، لا سيما في وصفه هنا، فهي تمكنُهُ من العثور على ما ينبغي أن ترتديه معانيه من ثياب تليقُ بها لتظهرها في أبهى زينة من الألفاظ، والشاعرُ الوصاف يجب أن تتوافر فيه مجموعةُ أوصافٍ دقيقةٍ، منها تمتعه بخيال وإحساسٌ متقد يمكنه من التعبير عن الموصوف بقوةٍ واقتدار[١٥٢] مما يجعل الصورةَ معبرة قوية.

ومن كان مجنونًا ويقتدرُ على وصف الحياة والموت مثل (سعدون) فأهلاً بجنونه؛ فالإبداع يقوى ويلمع بين جنبات الجنون الذي يصنع طريقًا مختصرًا تسير عليه حياة الإنسان عبر صورته هذه، ومن يخالف الواقع ويدحض ما استقر عنه في عقول الناس من كونه مجنونًا هو مبدع وتشتعل نيران العقلانية في مواقد الجنون عنده، إنه يستتر خلف عقله الواعي الذي تفرزه الكلماتُ التي تتأججُ بالدلالات التي تُسمِعُ من حوله صوتَ عقله اليَقِظِ وقلبَه النابض، ولا تطلقه حرًّاً يعيث فسادًا بكلماته بل تجعله ناطقاً بحكمة لا تتاح لعاقل، وتأتي المشاعرُ طاغيةً عبر أساليبٍ يتضح منها الحثُّ والنصحُ، فالشعرُ الذي أمد الجنونُ به العقلَ هنا يزيح الستارَ عن كم هائل من المشاعر والأفكار التي تنطق بها الأبياتُ، ويظهر الإبداعُ عبر اللغة الناطقةِ بالمعاني والدلالات التي تحوذ الأفكارَ وتهديها القاريءَ، وهذا من شأنه أن ينالَ استحسان القاريء وتفاعُلَه؛ فقد استطاع الشاعرُ هنا نقلَ ما يحس به من مشاعر ملونة بعاطفته في إطارٍ من التعبير والتصوير بحيث يجعل المتلقي متمثلاً ومتصوراً لما يريد نقله من مشاعرٍ وأحاسيس متأثرًا بها[١٥٣]، فكأنه عينُ الشاعر يرى بها شعرَه وينصهرُ فيه.

الفصل الثاني: مظاهر العقلانية الذاتية في شعر الجنون عند "سعدون".

أتت العقلانيةُ أيضًا في شعر (سعدون) لتعبر عن ذاته الداخلية في موضعين هما: الزهد، والحب الإلهي، وفيهما يخاطب الشاعرُ روحَه التائهَةَ في ملكوت العقلاء من حوله، وكانت عقلانيتُه ظاهرَةً في العبارات التي شكلت بنيةَ شعر الزهد، والحبِ الإلهي، فما أن نطالع أبياتَهُ إلا ونجد الزهد قابعًا بين ثنايا كلماتها يدعو من أدبر وتولى عن الآخرة وجمع من الملذات والشهوات فأوعى، إلى الانتباه والانصراف عن هذه الملذات والمهلكات.

المبحث الأول: الزُّهد:

للزهد مكانةٌ لا تُنْكَرُ عند الشعراء عامة، والعقلاء منهم خاصة، وأقصد بالعقلاء: الذين فهموا هذه الدنيا وعرفوا جيدَها وسيئَها فانصرفوا عنها، وكان منهم: أبو العتاهية، والمعري، وابن الرومي، والحلاج، وغيرهم كثير ممن كانوا في عصر الشاعر (سعدون)، فها هو يدعو النفسَ للابتعاد عن الغير وأن تلزم الوحدةَ حتى يظنَّ من يرى صاحبها أنه راهبٌ، يقول (من مجزوء الخفيف):

خُذ عن الناس جانبًا ///// كي يظنوكَ راهبًا[١٥٤].

من راقب الناسَ مات غمَّاً ومن اعتزلهم سلك طريق الفوز والراحة، وحين يصبح الناس موردًا للهلاك فاجتنابهم أدعى للبعد عن شرورهم وآثامهم، فالشاعر ينصح ويرشد عبر أسلوب الأمر (خذ..)، ومن يتمعن في البيت يجد (كي) لا تفيد التعليل بل الغاية؛ فالمعنى لا يدعو للرهبانية بل للغاية من البعد، فالبعد حتى يضحى المرء راهباً هو مرادُ الشاعر، وربما يُسقطُ الشاعر هذا على البعد الداخلي الذي هو عليه، وربما يعكس الحالةَ التي عليها من النظرة الخاطئة للناس عنه؛ فهو ليس مجنونًا بل هو معتزلٌ لشرورهم والاختلاط بهم، وربما يبرهن على نظرته للمخالفة، فهي طريقُ النجاة، إنه ينتزع نفسه من واقع سيء حوله، فهل من امتلك نظرة كهذه حول الأمور مجنونٌ؟ لا بالطبع، فمطرقة الواقع وسندان الإبداع يجعلان (سعدون) يظهر عالمه الخاص، ذلك

الذي تحوطه الانعزاليةُ والنفور من كل ما يجلب المشقة والخسران، وهذه حقيقةٌ لا يعيها إلا العقلاء الذين حلبوا أشطرَ الدهر، وأتعبهم الإبساسُ له عله يَدِرُّ لهم ما يسرهم ويسعدهم، ويأتي لهم بكل ما يسير وفق رؤاهم الخاصة، عالم فاضل لا فيه جورٌ ولا بهتانٌ، عالم تسوده الفضائلُ وتندحر فيه الشرور، بل قد جثم عليهم الشرُّ بكلكله فدعسهم، لذا فالبعدُ والمجانبةُ أنجع للنجاة، إن جنون (سعدون) العاقلَ هنا هو ما يصور له الأشياء على الوجهة الصحيحة التي هي عليها، فالمجنونُ هو العاقل الذي يجمَعُ بين النقيضين، العقلِ والجنونِ؛ فإنه" إذا كان الجنون يأخذ صاحبَه في دوامة حيث يفقد السيطرة على نفسه فإن المجنونَ على العكس من ذلك ؛ يذكر الكل بحقيقتهم"(١٥٥)، وقد ذُكر سابقًا أن (سعدون) كان من العقلاء ولكنه صام ستين سنة حتى جف عقله، فهو قد عاصر أناسًا، وتمكن من سبر أغوارهم سابقاً، فهو يفضل تجنبهم ومجافاتهم كونه خبيرًا بشرورهم.

إن (سعدون) له رؤيته الخاصة وأفكاره المبنية على فلسفة واعية تجعله ينطلق في رحابة الإبداع، ذلك الذي يمده به جنونُهُ، فيصف صدقًا ما يشعر به المجنونُ هنا، فالمحسن من الشعراء هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وِجدٍ حاضرٍ أو دائر يجد، وقد وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة في الشعر، ووُصِفَ الشاعر لذلك(١٥٦)، فهو يتخير ما يراه مناسبًا لإكساب قضاياه تأثيرًا وفعالية.

إنه لمن الجميل أن تكونَ وحدَك، تلتحفُ الصمتَ رداءً والوحدةَ مكانًا، فأن تكون وحدك لا يعني أن تكون وحيدًا، بل يعني أنّ عقلك لا يتأثّر ولا يتلوّث بالمجتمع، ذلك المجتمع الفاسد، فما أجمل الوحدةَ حين تكون قاربَ النجاة في بحر الهلاك والبعد عن كل ما يؤرق الحياة، ويفقدها أهميتها التي لأجلها جاء الإنسان، إنها عبادة (الله) سبحانه، هذا ما ينتجه شعرُ الجنون الماثلُ في البيت، فالأسلوبُ الطلبي في: (خذ...) أوجز، عبر النصح والإرشاد المطل منه، في إيضاح أهمية العزلة أحيانًا حتى يظن الناس صاحبها راهبًا قد لزم صومعته لا يرغب في البعد عنها – الصومعة – تجنبًا

للناس وشرورهم، فما العقلانية بأوضح من هذا الأمر إذا ما طلب الإنسان غنيمة وراحة في دنياه، فالداء هُمُ، والعزلة هنا الترياقُ الشافي من ما أَلَمَّ بـ(سعدون).

إن المنطق السليم هو ما يقره الجنونُ هنا، فالوحدة تضحى خيرًا من ألف جليس، ولا يخفى وجودُ أداة التعليل (كي)، فهو يجعل الوحدة نتيجة مقبولة فهي "رهبانية" ولكن لم تبتدع إنما تُقَرُّ، ومن كان هكذا لن يقترب منه الناس لقدسية ما عليه؛ فانعزاله ورهبانيته هنا عبادة وخشوع، فاللفظ (راهبًا) حقق مراده في كونه قارب النجاة من الجنون الحقيقي، وكل هذا في نهايته يُكسِبُ الإنسانَ زهدًا وبعدًا عن هذه الدنيا المنقضية.

ولَقَبُ (المجنون) يأتي لمن يأتي بالغريب في شعره لعقول الناس، أو بما لا يعتاده الناس منه، وهذا ما نظمه (سعدون) هنا؛ حين يصور مناجاة بينه وبين نفسه، يقول (من الخفيف):

كل يوم يَمُرُّ يأخذ بَعضِي ///// يَذْهَبُ الأطيبانِ منه ويمضي

نفسُ كُفِّي عن المعاصي وتُوبِي ///// ما المعاصي على العباد بِفَرْضِ[١٥٧].

كفى بالبيتين مجيبًا لمن أراد إجابة عن الأسباب التي تبعد الإنسان عن (الله) سبحانه، وعدم الرجوع عن الذنوب، إنها النفس الأمارة بالسوء، ولا يخفى أسلوب الشاعر في قوله:"يذهبُ الأطيبان"، وتوافقه دلاليًا مع قوله:"ما المعاصي على العباد بفرض"؛ فالأطيبان هنا هما: الأكل والنكاح، أوالتمر واللبن، وقيل هما: الشحم والشباب، وغير ذلك[١٥٨]، وهنا نجده قاصدًا لمعاني الشحم والشباب، التي تشير إلى الصحة والشباب، فهما متغيران، ودائمًا ما يغتر بهما الإنسان اللاهث وراء الشهوات، لذا يخاطب نفسه أن تكف عن المعاصي وأن تتوب، فلا تنساق وراء ما يهلكها، وما هذه المعاني إلا العقل بعينه؛ فهي تنطقُ بحقيقةٍ يغيب عنها البعضُ، ويظهر الردع والتهديد في فعلي الأمر: كفي، وتوبي، فاللغة عاقلة ناطقة، وليست جنونًا، فـ(سعدون) يأتي بكلامه

الناطق بالحق والعقل وهذا تفرُدٌ منه عن غيره، وهو يأتي بكلامه هذا في مستوى دون مستوى الإنسان السوي كما هو متعارف عليه، لكنه في الحقيقة تجسيدٌ لإنسان عاقل بكل صفاته ونقاوته الداخلية، وحريته التي لا تعرف الحدودَ[١٥٩] كونَها لا تخضعُ لحدود العقل المعروفة، إنها تنطلقُ دون رادعٍ أو قيد.

وفي البيتين يدفع الجنونُ العقلَ على الإحاطة والاحتواء لواقع مرير عليه العديدُ من الناس، وهي أمورٌ حياتيةٌ حادثة فعلاً، فكأنه أحاط بفلسفة النفس التي لا ترعوي للرشد فتأتي حكمتُه" فما المعاصي على العباد بفرض" فالعقلُ هو طريقُ الحكمة، والحكمة هي خلاصةُ الامتحان لمعادن الأشياء والناس والحياة معًا؛" فالحكمة هي تسجيل خلاصة لتجربة إنسانية عميقة ذات أبعادٍ ودلالات كبيرة في حياة الفرد والمجتمع"[١٦٠]، ومعروف أن الحكمة لا تصدر إلا عن عاقل بل خبير ببواطن الأمور ومجريات الأحداث.

ولا ينفكُ (سعدون) داعيًا للزهد وإبعاد النفس عن الملذات والشهوات فنراه يقول (للمأمون) الخليفةِ العباسي المعروف، ناصحًا له بالتفكر في الدنيا والبعد عنها، يقول (من البسيط):

يا مَن بنى القصرَ في الدنيا وشيده ///// أسستَ قصرَك حيث السيلُ والغرقُ

لو كُنْتَ تُغْنَي بذخرٍ أنتَ ذاخِرُهُ ///// أسَّسْتَهُ حيثُ لا سوسٌ ولا خَرَقُ

والموتُ مصطبحٌ منكم ومُغْتَبِقٌ ///// فاحْتَل لنَفْسِكَ قبلَ الوِرْدِ يا حَمِقُ

واذكُر ثموداً وعاداً أين أنْفُسُهُم ///// فلو بقي أحَدٌ مِنْ بَعدِهِم لبَقَوا[١٦١].

إن من يعي هذه الأبياتِ جيدًا يدرك النظرة القوية للشاعر عن الدنيا وما بها من أمور، وتظهر النهاية الحتمية لكل ما عليها، ومن فيها، فلا القصور باقية ولا حال دائم على وتيرة واحدة، فقوم (عاد) أين هم؟ وثمود؟ وكل ما كان يشارُ إليه بالبنان؟ ولا يغيب الأسلوبُ الطلبي في أبيات الشاعر ومدى ما يشير إليه، فالأسلوب الإنشائي في:

يا حمق – يا من بنى القصر، أين هم..، والإنشائي الأمر: اذكر...، واختر لنفسك... يفيدان النصح والإرشاد، وغير الطلبي في الشرط في: لو كنت تعني...أسسته، ولو بقي أحدهم لبقوا، وكلها تحمل إسقاطا قويًا وتجريدًا بليغًا؛ فهو لا يخاطب المأمون فقط؛ بل يخاطب الجميع، الملوك والعامة ونفسه معهم، وكلها تحمل معاني الدعوة للاحتراس من الدنيا وعدم السير وراء سرابها المهلك، ويسوق مثالًا حقيقيًا، وهو اندثار قوم (عاد) و(ثمود).

إن الأحمقَ هو من أورد نفسه مواطن الهلاك أو من يرى الخلودَ في ثوب البقاء الزائف المتمثلِ في تشييد القصور أو حيازة الأموال الطائلة، وما هذا إلا جنونٌ؛ فالعقل يجب عليه ألا يركن إلى سراب، ويجب عليه البحثُ عن الخلود الحقيقي المتمثلِ في العمل الصالح، وتعطي الأساليبُ الخبريةُ: أسسته حيث السيل، أسسته حيث لا سوس، والموت مغتبق ومصطبح خلاصة قوية عن الحياة الدنيا، وبالطبع تبين هشاشة كل ما يظنه الإنسان باقيًا شامخًا، إنها حجج قوية على الضعف والانهزام أمام الموت والفناء، فالأبياتُ التي يظنها الناس قد أنشدها مجنونٌ قد بلورت منطقًا قويًّا، وكشفت عن حكمة عميقة حاذها (سعدون)، ونظرةٍ موجزة لبواطن البقاء الحقيقي والخلود المزيف، وهذا يعني أن الشعرَ قد تحول من شكلٍ معروفٍ قد أضيفت إليه نفسٌ مدركة ترى الأشياء وتستقبلها بطريقة ذاتية تتشكل بمنطق رؤيتها الخاصة وزاويتها بالإضافة لمنطق يتخيره الشاعر هنا ليقدم رؤيته حول الخلود الحقيقي وموقفه الخاص منه[١٦٢]، والذي يظهر الحكمة والنظرة الثاقبة.

ومن يتأمل تلك الفلسفةَ التي تقبع بين ثنايا الأبيات الشعرية يجد أنه من الحُمق أن يُظْلَمَ الجنون الذي أبدع هذه الأساليبَ والتراكيب البعيدةَ المعنى، والتي تعكس نفسًا واعية تستتر خلف ما يسمى الجنون؛ فربما يكون الجنونُ سببًا من أسباب ظهور الحكمة وإتيانها وطريقًا ممهدًا لها، وذلك عبر الأساليب المتشكلة، والتي تدعو كلها إلى التعقل وإعمال العقل، ولا يُنكَر دورُ النداء في إكساب معاني الحسرة والندم والتحقير

لتلك المباني التي أُسِّست على أرضية هشة، وأيضًا النصح والإرشاد والأساليب الخبرية الماثلة، وتتعاضد جميعها لتفصح عن الخصائص الداخلية لثقافة الجنون الذي كان عليه (سعدون)؛ فهو يبلور نظرته في أمور لطالما عجز العديد من العقلاء أن يأتوا بمثل ما أتي به، ولو كان بعضهم من الشعر متمكنًا أحيانًا، فنعم الجنونُ جنون سعدون.

ويلوذ العقلُ بالجنون ليعبر له عن حال الدنيا التي استعصى الوصفُ أن يجد لها كلماتٍ ليعبر بها عنها ، لذا ف(سعدون) يمده جنونُهُ بصرخات قوية في وجه العقل ليفصحَ عن هذه الرؤية الثاقبة التي تؤكد عدمَ جدوى المال أو الجاه في بناء حياة ثانية لصاحبها بعد موته، يقول (من الكامل):

ما حالُ من سكنَ الثَّرَى؟! ما حالهُ ///// أمسى وقد رَثَّتْ هناك حِبالُهُ

أمسى ولا روحُ الحياة يصيبُهُ ///// أبدًا ولا لُطْفُ الحبيبِ ينالُهُ

أمسى وقد درسَتْ محاسِنُ وجهِهِ ///// وتفرَّقتْ في قبره أَوصَالُهُ

واستبدَلَت منه المَحاسِنُ غُبَرَةً ///// وتقسَّمَتْ من بعدِهِ أَموالُهُ

ما زالت الأيامُ تلعَبُ بالفتى ///// والمالُ يذهبُ صفوُهُ وجلالُهُ(١٦٣).

إن الجنون، وإن كان عدواً للمنطق، إلا أنه هنا يلازمه ويسير في ركابه ليوصله إلى صورة قوية يجسد بها حال الميت بعد أن كانت حافلة بالبهاء والجلال، وقد جاءت الأفعال الماضية كلها لتساهم بقوة في إبراز النقيض الذي لم يكن ليتصوره صاحبه يومًا ما، سواءً في حياته أو بعد مماته، فالكلُ يذهب ولا يعود أبدًا، ولكن ستظل الأيامُ كما هي عادتها، ويذهب ما حولها من المال أو الجاه، فلا يظن الشقيُّ أنه سيهنأ بمالٍ أو أنه ستصبه السعادةُ بسببه، ويجب عليه الحذرُ والحيطَةُ من تلك الهالة الزائفة من الأمان أو المكانة الاجتماعية التي تحوطه جراء هذا المال، ولن يبقى شيءٌ

سوى العمل الحسن أو الرديء، فإن أحسن بقي الخير له، وإن أساء بقي السوء له، فكل ظل يشهد على استقامة صاحبه أو اعوجاجه، فليبن كل إنسان بناءه كما يريد.

والبناء الذي يبين عن حياة متناقضة يحياها الإنسان والفناء الذي يزحف نحوه وسط ضجيج الحياة الذي يجعله لا يعطي بالاً لهذا الموت الذي هو كسكون النهوس ليس بمانعه أن يعض شيئًا يكون نتيجةَ إدراكاتٍ حسية وعقل قد اكتسب خبرة ودربة ودراية بمسالك الأمور، فالجنونُ هنا يقر تبدلاً لحالة الأيام والحياة التي عليها الناس جميعًا، فالجنون هنا إبداعٌ وحياةٌ، وليس بلاهةً أو موتًا للعقل، فهو" ليس أمرًا شيطانيًا أو خللاً خلطيًا وإنما هو أمرٌ وهمي بالأساس وخطأٌ في الإدراك لا في الإرادة أو العاطفة؛ فالمجنونُ يقول ويربط بين الأفكار الخاطئة، ويقدم استتباعًا افتراضات ومسائل خاطئة، ولكنه يبني تفكيرًا سليمًا انطلاقًا منها.... أما البُله فإنهم.... ولا يمارسون التفكير البتة"[١٦٤]، فالدعوةُ هنا لن يطلقها الجنونُ ولكن العقل هو من يصدح بها في جنبات المنطق والمعقول؛ فالجنونُ لن يدعو إلى الزهد عبر تبرير الأسباب القوية له، ورسم صورة قوية للحياة الزائفة التي نحياها، إنها الحكمة التي تنفث دخانها بين رماد الجنون لتندلع النارُ قويةً متأججة، نيرانُ الزهد، وهذا ما يظهره البيتُ الأخير: يذهب المال صفوه وجلاله، وأيضًا: وما تزال الدنيا تلعب بالفتى.

وتكسب المضارعةُ في الأفعال: (ما تزال، ويذهب) الأمر الديمومة والاستمرارية، واللتين هما من سمات الحكمة؛ فلا هي تتغير أو تذهب بذهاب العصور، وما هذه النظرةُ القوية بصادرةٍ عن فلسفة قريبة أو اعتباطية بل بعينٍ قد استشرقت الأيامَ المقبلة واطَّلَعت عليها، فالجنونُ هنا مصباحٌ أنار جنباتِ الظلام عن الملذات القابعة والمتأهبة للانقضاض على المرء الغافل فتفتك به وتضرسه بأنيابها القوية، ولا تخفى معاني الاستنكار والتكذيب لما يفعله الإنسانُ العاقل من الانسياق وراء هذه المهلكات البراقة، والتي تصدح بها جنبات الغرض البلاغي لأسلوب الاستفهام الإنشائي: ما حال– ما حاله التي تفيد السخرية والتهكم من حاله التي وصل إليها.

وتبدو المقارنةُ أيضًا بين النقيضين بغية إيضاح بواطن الأمور، فها هي مقارنةٌ بين الدنيا والآخرة يبدعها جنونُ (سعدون) حين يدعو للانصراف عن الدنيا والاستعداد للآخرة وللحياة الأبدية الحقيقية بها، وذلك حين نراه يكشف لنا عن كذب هذه الدنيا حين يقول (من السريع):

يا خاطبَ الدنيا إلى نفسِها ///// إن لها في كل يومٍ خليلْ

ما أقبحَ الدنيا بِخُطَّابِها ///// تَقْتُلُهُم عَمْدَاً قتيلاً قتيلْ

تستنكحُ البعلَ وقد وَطَّنَتْ ///// في موضعٍ أخرَ منهُ البديلْ

إني أَعيشُ وأيدي البِلَى ///// تعمَلُ في نفسي قليلاً قليلْ

تزَوَّدوا للموتِ زادَاً فقد ///// نادى مُنادِيهُ: الرحيلُ الرَحيلْ(١٦٥).

غادرةٌ هي الدنيا؛ إنها لا يُأمنُ جانبها أبدًا، إنها لا تبقي على عهد ولا يأمنها أحدٌ، هكذا يصور(سعدون) الدنيا بأشد درجات الخيانة والغدر، إنها إنسانةٌ شريرة لا ترعوي عن فعل الشرور ولا يدوم لها بعلٌ أحبها أم لم يحبها، إنها تستدرج لأجل القتل فقط، يا لها من صورة قاتمة محبِطة! قد حَوَتْ صفاتٍ لا يبدو من بينها بصيصُ خير أو ضوء رُشد؛ إنها خائنة، ومتلونة، وقاتلة، وغادرة، لا تكسب من اقترب منها سوى الهلاك والفناء، إنها العقلانية المنعكسة عبر مرآة الجنون، والضوء الذي يُسلطه الشاعر على هذه الأفعى (الحياة).

وتُكسب الاستعاراتُ تأثيرًا قوياً للأبيات عبر التشخيص في قوله: يا خاطب الدنيا، وإن لها خليل، وما أقبح الدنيا بخطابها، وتقتلهم عمدًا، وتستنكح البعل، ووطنت منه البديل، ونادى مناديه، والتجسيد في قوله: أيدي البِلَى، وتزودوا للموت، فهي توضح حقيقة عبر تقريبها لها بصورة حسية ملموسة ومتداولة بين الناس، وكل هذا يظهر الدنيا في حُلَّةٍ مهترئةٍ لا تقي صاحبَهَا شيئًا سوى كشفَها عن مساوئه، فلا هي تكسبه احترامًا أو سعادة يظنها يمكن نوالُهَا، فالاستعاراتُ تدعو المتلقي للبعد عن تلك الدنيا الذميمةِ

وعدمِ الاغترار بزخرفها، وتعطي بالتالي طاقاتٍ انفعاليةً حضوريةً وغيابيةً تعكس رؤيةَ (سعدون) عن الحياة والدنيا، وهكذا تصبح [الاستعارات] كيانًا تجاوزيًا دائم الإنتاج والخلق .... مستمرًا في الصيرورة ؛ لأنه متحرك وقابل لكل زمان ومكان وفعاليته متولدة من ذاتية النص(١٦٦)، فالنصُّ يشهد على فحواه ما به من دلالات تكتنف الكلمات.

والنظرُ إلى صورة الدنيا وتشبيهُها بالزوجة الخائنة القاتلة الغادرة له مردودٌ نفسي سيءٌ وإيحائي قوي؛ فهي السكن والرحمة والأساس لعمارة الكون إذا ما صلحت، وأما هذه الصورة المساقة فهي للمفسدة، فلا مودة ولا رحمة ولا سكن ولا شيء إلا الخراب، فماذا تبقى إذن؟ لا شيء، فالصورةُ تصور الدنيا معولا لا يصنع سوى الهدم والإزالة، وربما يعكس هذا نظرةً مكلومةً عند (سعدون) عن النساء، حالةٌ فيها الحنقُ عليهم، فلن يأتي التشبيه من فراغ وإنما لمناسبة قوية فهو يستحضر ما يراه ملائمًا عبر القياس عليه ليكسبه قوة وتأثيرًا فتظهر الدنيا على صورة قبيحة لأبعد الحدود، وإن بدا وجهها جميلاً للناس من الخارج، فلا شيء خلف الجمال الزائف هذا إلا القبح، والذي يقبع خلف الملذات والشهوات وما تزينه للناظرين إليها، فالمضمون من الأبيات يتحد نظمًا مع النظم والبنية التي جاءت عليها الأبياتُ، فالأساليب الخبرية والإنشائية التي اكتنفتها العبارات تنم عن وعي كامل يلهم الشاعر بهذا القالب الجميل الذي يصور به الدنيا التي في ظاهرها الجمال والبهاء ومن قِبَلِها أو باطنها العذاب، فهناك إذن ما يمد الشاعر بأسباب الإبداع والتصوير القوي وحينما تأتي" لحظةُ الشعور الكثيف الذي تتكامل فيه طبقاتُ الوعي جميعًا، يُلهَم الشاعرُ بالرؤيا في شكلها الخاص، ولا تجيء الرؤى والأفكارُ مجردةً ثم تنزل في قالبٍ مهيَّأ مسبقًا.... لأنه لا وجود للشكل المسبق"(١٦٧)، فكلُّ شيء يأتي لمناسبة له.

والجنونُ الخلاقُ يأتي عند (سعدون) لينقَضَّ على قسيمه السلبي، وهو يجد طريقًا للقاريء أو المتلقي عبر أبياته الرائعة ليكمنَ داخلها، فتأتي صورةُ الدنيا على

حالة تجعل المرءَ يزهد فيها ويبعد عنها ولا يغتر بظاهرها الخادع، وتعقد التشبيهاتُ لها بالزوجة المتعددةِ المساوييءِ صورةً منفرَةً لا يخفى ما بها من دعوات لتركها، كما سلف، وذلك في كل أحوالها من الشروع في التعلق بها حتى الاندماج فيها والانصهار داخلها، تمامًا كحال الخاطب لمحبوبته حين تنمو غشاوةٌ على عينيه لا يرى معها صورتَهَا الحقيقيةَ حتى يتزوج بها فتصبح قريبة منه مندمجة معه فتظهر له عيوبُها فلا طريق للخلاص منها حينئذٍ إلا بتسريحها والبعد عنها، فمن يعش في ظلمات الخداع يفيق على ضوء حقيقة الرحيل المفاجيء لما يتعلق به ويدرك كم كان في ضلال مبين.

ويدعو (سعدون) الذي يظنه الناسُ معتوهاً (هارونَ الرشيد) ويزَهِّدُه في الدنيا، يقول(من مجزوء الوافر):

هَبْ الدنيا تُواتِيكا ///// أليس الموت يأتيكا

فما تصنع بالدنيا ///// وظلُّ الليل يكفيكا

ألا يا طالبَ الدنيا ///// دَع الدنيا لشانِيْكَا

كما أضْحَكَكَ الدَّهْـ ///// ـرُ كذاك الدهرُ يُبْكِيْكَا[١٦٨].

صورة مباشر يصنعها (سعدون) للتنفير من الدنيا عبر ذكر ما ينهيها ويؤكد زوالها، ومن الحماقة التمسك بشيء زائلٍ منقضٍ، فلن يصيب الإنسان إلا الخسران والندم آنذاك، والموت هو بالطبع ذلك المزيل والقاضي على كل شيء بلا جدال، وتأتي أساليبُ الطلب متشكلةً في الأمر: دَع، والذي يعطي معاني النصح والإرشاد، والاستفهام في: أليس الموت.... الذي يحمل معاني التقرير والتأكيد لإتيان الموت، وقوله: ما تصنع بالموت الذي يعطي معاني الاستنكار من الجري وراء الامتلاك والاستحواذ والقليل يكفي ولا حاجة للمزيد من الأشياء الزائلة، والنداءُ في: يا طالب الدنيا الذي يحمل معاني التنبيه والنصح، ويأتي الأسلوب الخبري:الدهر يبكيك أضحكك الدهر ليفيد التقرير والإثبات، وقوله: ظل الموت يكفيكا الذي يفيد التنبيه واللوم، والقابعة

في داخله الاستعارةُ المفيدةُ لمعاني الوجود والتجسيد للموت بقوة، فهو يلازم الإنسان لا يفارقه أبدأ، أيضًا التشخيص في: أضحكك الدهر . الدهر يبكيك، وكلها براهين وحجج دامغة على الحال المتقلبة للأمور الجارية، وتتعاضد الأساليبُ وما بها من بلاغة صافية لتعطي معاني الرثاء القوية للنفس التي لا تنتبه إلى ما يوردها الهلاك، فالنصيحةُ من الشاعر بين ثنايا الأبيات تمثل بقوة ووضوح، فمهما فعل الإنسان في دنياه فإنه سيغادرها كما جاءها مفردًا مجردًا، وما هذه النظرةُ الثاقبة بآتية من عين أصابها اختلالٌ أو شينٌ، وما كانت تلك الرؤية بنابعة من قلب لا يؤمن بحقيقة ما يسوقه أو ما سال في أوردته من دماء التجربة والزهد، ولا يخفى ضمير المخاطب وأثره في مراعاة حال المخاطب القريب وتوجيه النصح له دون ذكره، وهذه سمة النصيحة الحقة.

ولا تخفى دقةُ العبارات ونظمُها في صورة سلسة سائغة للشاربين، وانعكاس العقلانية بقوة في دلالات عباراتها، وهي سمة شعر (سعدون) رغم قلته، لا سيما في شعر الزهد، فالبراهينُ والحقائق الملموسة الظاهرة كلها مرادها المركزي والمرجو هو الوصولُ بالقلب والروح إلى حقيقة مؤكدة، وهي ضرورة الزهد والانصراف عن تلك الدنيا التي هي الموت بعينه، والانصراف عنها وتصفية الروح وتطهير الجسد من أدرانه المادية تمهيدًا للاتصال (بالله) تعالى وطريق معرفته[١٦٩]، فلا عجب أن ينفر الشاعرُ من الدنيا ويرغب في الآخرة والإقبال على الله (سبحانه)، ولن يحدث هذا بالانسياق وراء الملذات والدنيا التي مآلها الفناء والزوال.

وإن كان الشعراءُ المجانين قد سُمُّوا بذلك، فالباحث في نظمهم لشعرهم يجدهم أبعد ما يكونون عن الجنون،

ذلك الجنون المعروف لنا؛ فحياتهم وما يأتون به ليس جنونًا (حسب ما ورد في شعرهم الثابت عنهم)؛ فجنونهم فيه طاعة (لله) عز وجل، وهم يذكرون الحقائق التي قد

لا يعرفها الكثير من الناس اللهم إلا من تقرب إليه وأتاه بقلب سليم، و(سعدون) بجنونه هذا قد خاض عُبَابَ بحار مشكلات عدة، ومنها التعلق القوي بالدنيا الفانية، لذا يدعو للزهد والتفكر في الآخرة للتخلص من هذا الوباء المستشري بين الناي كالنار في الهشيم، وحدا به الجنون أن جعله ذا نظرة حكيمة ترى بعين العقل ما غاب عن الكثيرين، فالعقلُ العادي وإن كان يملي على صاحبه كتاباته فإن سعدون لا يتبع عقله؛ فإن العقل يهبط بالإنسان إلى الواقع أما هو فتجاوزهذا الواقع بجنونه، لذا ليست هناك قيودٌ تُملِي عليه ما يفعله، إنه حرٌّ طليق يأتي بما يعجز العقلاءُ من الناس عن الإتيان به، ولا أدل على ذلك من إتيانه باستعارات عديدة تثبت ذلك الأمرَ العقلي وتؤكد حقيقَتَه، إن هذا الأمرَ هو أنه من فقد عقله أحيانًا ليس مجنونًا بل إن من لا يلجمه عقله عن الانسياق وراء الفناء والزوال هو المجنون حقًا.

المبحث الثاني: الحب الإلهي:

كانت الكلمةُ منذ الأزل مصدرًا للطاقة الشعرية ذات الوظيفة التوضيحية؛ فقد شَكَّلَتْ في مستويات متعددة بنياتٍ دالةً على المعاني المختلفة، ولا سيما هنا في الحب الإلهي؛ فهي من الوسائل الفعالة التي عمد إليها (سعدون) لإيجاد لغةٍ لها القدرةُ على البوح والتعبير القويَّينِ عن تلك الصلة القوية بينه وبين (الله) سبحانه، فنجده يخاطب الخالق عز وجل في قوله (من الوافر):

أيا من كُلَّمَا نُودِي أجابا ///// ومن بجلاله ينشي السحابا

ويا من كَلَّمَ الصديقَ (موسى) ///// كلاماً ثم ألهمَهُ الصَّوَابا

ويا من رَدَّ (يوسف) بعد ضرٍّ ///// على من كان ينتحبُ انتحابا

ويا من خَصَّ (أحمد) باصطفاءٍ ///// وأعطــاهُ الرسالةَ والكتابا.

اسْقِنَــا[١٧٠].

تطلُّ العقلانيةُ من خلف الأبيات عبر مناجاة (سعدون) (لله) سبحانه، بل إنه يكثر من ندائه عبر ذكر مواقف مشابهة يستحضر بها لُطفَهُ (سبحانه) ورحمته بأنبيائه: موسى، ويوسف، ومحمد، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام، لذا فهو قد استسقاه قومه وطمعوا في دعوته (لله) تعالى، وقد جاء أن السماء انفرجت بالمياه كأفواه القرب، وذلك حين رفع يديه للسماء طالبا ذلك(١٧١)، وفي الأبيات لا يخفى الترتيبُ الزمني للأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، ومدى ملائمة البيت لمناسبته والتعانق القوي للألفاظ مع المعاني، وتظهر براعَةُ الختام بإظهار الغرض عبر التلطف بما يمهد له، وهو الدعاء بالسقيا، ولا يُنكَر حسنُ الابتداء وفيه مخاطبة (القادر) سبحانه بأداة النداء (أيا) التي تفيد نداء البعيد، ولكن هو قريب لمن يدعوه، فهو بعيد قريب (سبحانه) قريب لمن أحبه وتعلق به، وبعيد لمن لا يؤمن به ويحبه، ومن يناديه فهو يعرف مكانه.

إن هناك أواصر صلة وحب عميقين بين (سعدون) و(الله) سبحانه، ومن يعي هذا فلا يهيم إلا بمن أحب، وقد جف عقل (سعدون) لتعلقه الشديد وحبه (لله) سبحانه، فقد تحرر عقله من عقاله ومن الحدود التي تحده، وقد حاز (سعدون) أمرين هما: الإيمان والعقيدة، وهذا كافٍ له للوصول إلى الحقيقة الكبرى التي يبحث عنها، ويبحث معه جميعُ المحبين عنها، إنها وجود (الله) سبحانه، ولا نجد فكاكاً من البرهان على ذلك إلا بذكر ما ذكره (النيسابوري) في كتابه حول(سعدون) حين طلب الأخيرُ السقيا من (الله) سبحانه فاستجاب له (تعالى).

والجنونُ عند (سعدون) هو انطلاقٌ وتحرر للعقل واقتراب من الحقيقة الكبرى، وجود (الله) سبحانه، لذا يصف بقوة حبه الإلهي وتعلقه بالعزيز الحكيم الذي رآه (سعدون) بعين قلبه، يقول (من الوافر):

قلوبُ العارفين تَحِنُّ حتى ///// تَحُلُّ بقربه في كل رَاحِ
صَفَت في وِدِّ مولاها فما إنَّ ///// لها مِن وِدِّهِ أبداً بَرَاحِ(١٧٢).

تتحدُ الروح الإنسانية مع من تحبه ومن كان على شاكلتها، ولكن حين تكون المحبة لرب القلوب (الله) سبحانه، فالوضع جَلَلُ، فمن ذا الذي قد اتصل قلبه بحب (الله) سبحانه حتى تعلق به بقوة ولا ينفصل عنه؟ إنه من صفا قلبه واتحدت روحه به فلا تظهر إحداهما إلا وترى الأخرى، وهذا الحب يجعل الروحين متعالقتين بفضل انجذاب إحداهما إلى الأخرى، نفسُ المحب إلى محبوبه كجاذبية الأرض للأجسام وتتجاذب رغم كونهما متشابهتين؛ فخيال المحب يسقط على المحبوب الكمال والحُسنَ التام" وأما العلة التي توقع في الحب أبدًا في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسنٍ.... وإن للصور لتوصيلاً عجيبًا بين أجزاء النفوس النائية"[١٧٣]، وهذا الأمر والاتصال العلائقي الروحي لن يكون للشاعر إلا بعد امتلاكه عقلاً راجحًا ونفسًا سوية، ويلجأ هنا لتصوير حلول روحه وصفائها عبر لغة تعتمد الخيال طريقًا لها، فنجده يعبر عن هذا بقوله: " قلوب تحن . وتحل في كل راح. صفت. صفت في ود مولاها" ليوحي بها ويبرهن على تلك الحياة الطيبة والحقيقة الجميلة، وهي اجتماع النصفين واتحادهما ليشكلا كلاً واحدًا، وهو ما أشار إليه ابن حزم في تفسيره للحب ونشوئه، فما ائتلف من القلوب اجتمع واتحد، وما اختلف منها تنافر وبَعُدَ.

وخلقُ عالم افتراضي للحَلُول هو رؤيةٌ لا ينتهجها إلا من كان له قلب وعقل يعملان بكفاءة واقتدار، والمعنى الذي يريده (سعدون) هنا هو الدعوةُ للحب الإلهي والخير والجمال، وهذا يدل على معرفته بالحب الحقيقي الذي يعتمد القلبَ وسيلةً له؛ ذلك لأن" الحب يقترن بلذة لا لذة فوقها، وإن له شرابًا يصفه بأنه التجلي الدائم الذي لا ينقطع، والقلب لا العقل هو الكأس التي يشرب بها الحب،.... وبما أن للحب أحكامًا كثيرةً مختلفة ومتضادة، فلا يقدر أن يقبلها إلا القلب الذي يقدر أن ينقلب ويتقلب مع الحب في هذه الأحكام"[١٧٤]، والقلب إذا ما وصل إلى مرحلة الصفاء واندماج الروح فقد عرفَ الإنسانُ (الله) سبحانه، وتفنى عندئذٍ روحُهُ في محبته تعالى، وهذا أسمى وأرقى ما يصل إليه السالك إلى (الله) سبحانه، وهذا الأمر يكسب النفسَ الإنسانيةَ راحةً وسعادة وأمنًا.

وهذا القرب من (الله) سبحانه، والذوبانُ في ذاته الإلهية يجعل (سعدون) يؤمن بقوة بوجوب الإصلاح الداخلي للنفس وضرورة وصلها بحبه سبحانه، فنراه يقول (من مخلع البسيط):

يا مَنُ يَرى بَاطنَ اعتقادي ///// ومُنْتَهَى الأمرِ في فؤادِي
أَصْلِحْ فَسَادَ الأُمُـورِ منِّي ///// ولا تَدَع مَوضِعَ الفَسَـادِ(١٧٥).

لم يأتِ (سعدون) بالنداء والأمر إلا لإظهار التضرع والدعاء والاسترحام من (الله) سبحانه عسى أن يصلح حالَهُ وما بداخله، وهذا يبرز قوةَ صلتِهِ به (سبحانه)، ودعاؤُهُ هنا في شعره يظهرُ عقلانية يتمتع بها؛ فما ذِكْرُ الباطن والدعوة لإصلاحه إلا دلالةٌ على علم صاحبه بمواطن الخلل والإصابة عنده، إنه القلبُ وما يُكِنُّه، فصلاحُ الشيء يبدأ من داخله وليس خارجه، وهذا يبرهنُ على عقلٍ أبعد ما يكون عن الجنون، وهو كشفٌ لعقلٍ وقلب تعلقا (بالله) سبحانه" وما يخفى على المتكلم تكشف بالعبارة للطاقة معناه، وتكون مع القرب ومع حضور الغيب، وتكون مع البعد"(١٧٦)، وتُكسبُ العباراتُ هنا المعاني والدلالاتِ صورةً تحيلها إلى عمل إبداعي يبوح بالعقلانية، وهي. العباراتُ . نتاجُ قرب لقلب ومجاهدات لنفسٍ متعلقة (بالله) سبحانه، وهذه الدلالاتُ على الحب والاتصال الإلهي تقنياتٌ كاشفة بقوة عن إيحاء قوي بتشظي الدلالات العقلية التي تعطي دلالاتٍ قويةً تتجاوز الحدود الذهنية للمجنون لتدل هنا على عقل واعٍ طالما تمتع به (سعدون) وقلب نابض بالحب (لله) سبحانه، وذلك قمة العقلانية؛ فكيف لمجنون أن يتعلق بحبٍ قد أذهب عقله منه؟! إنه جُنَّ لهذا الحب بعد معرفته.

وتنقبُ لغةُ الشعر في صحراء الجنون علها تستخرج كنوذَ العقلانية منها، ولن تجد كنزًا في الشعر بأنفس من ذلك الذي يبين عن المكانة التي وصل إليها (سعدون) من الذات الإلهية، إنها علاقةُ منادمة وحب عميقينِ لا يقدر على وصفها إلا كلامه حين يقول (من البسيط):

وكُن لرَبِّك ذا حُبٍّ لتخدِمَهُ ///// إنَّ المُحبِّين للأحْبَابِ خُـدَّامُ[١٧٧].

إن الإنسان ذا المعرفة الحقة (لله) سبحانه يعرفُهُ معرفةً عرفانية؛ فهي تأتي نتيجة حب جارف له حتى إن المحب له يضحي وقد حلَّت محبة (الله) سبحانه فيه، فتضحى نفسه جديدة خالية من كل الشوائب التي يمكن أن تعكر صفو العلاقة بينه و(الله) سبحانه، بل إنه" يتخلص من الأنا التجريبية، أي يتخلص من جميع الإحساسات والصور الحسية وجميع الأفكار المجردة وعمليات الاستدلال والإرادة، .... وعندئذٍ تنبثق إلى النور الأنا الخالصةُ التي كانت مختبئة عادة"[١٧٨]، ويأتي الإنشاء هنا (كُن) للوجوب، والخبر المؤكد ب(إن) ليعطي معاني التوكيد والتقرير، وهذا تصوير يأخذ بصاحبه لتأمل سلوك قائله عند المتلقي، وكيف يقدر على صناعة اختلاف وتميز في الخطاب؟! وربما جنون (سعدون) يأتي لحبه القوي (لله) سبحانه؛ فهو قد شهد بقلبه ما جعل عقله لا يقدر على معرفته سبحانه، فقد قال ابن عربي:" فمن لم يشهد التجليات بقلبه أنكرها بعقله"[١٧٩]، فعقلُ الشاعر هنا ينكر أمورًا كثيرة قد رآها أو اندمجت روحه مع من يحب فأنكر عقله هذا، ولكن آمن قلبه، وفقد صوابَهُ وعقلَه لهذا؛" فمن المريدين من يرزقه (الله) علم ما تعطيه حقائقُ الأشياء وترتيبها الإلهي الذي رُتِّبَتْ عليه فيريد عند ذلك أمرًا فلا تخطيء له إرادةٌ بل يقع مراده على حسب ما تعلق به، فهذا مريد بالحق...."[١٨٠]، و(سعدون) حينما أدرك حقيقةَ الحب الإلهي فتح الله على قلبه أمورًا لم يكن له ليدركها دون هذا الفتح المبين.

ومن أنار (الله) قلبه فقد أحبه، فقد قال (سبحانه):" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[١٨١]، وأيضًا قال عز وجل في حديثه القدسي:" مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ

الَّذي يُبْصِرُ بـه، ويَدَهُ الَّتـي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَـهُ الَّتـي يَمْشِـي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّـهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَساءَتَهُ"[١٨٢]، فالمتعلقُ قلبَه بأواصر المحبة الحقة قد نال ما تمنى؛ إنه قد وَصَلَ ذلك القلبَ بحبلٍ متين من اليقين والمعرفة الحقة، إنها المحبةُ الإلهية الحقة.

ومعرفةُ الخالق (سبحانه) تصل بصاحبها لترك ما دون (الله) تعالى، ولِم لا؟! والتفكير في ذاته العليا واتخاذ الوسائل لمعرفة سبل الوصول إليه سبحانه، وفي مقدمتها القلبُ والروحُ والنفس لا العقل والذهن، والمحب لربه (سبحانه) يعرفه بروحه ووجدانه[١٨٣]، وليس الوصولُ لتلك المنزلة والمرحلة من الحب (لله) سبحانه سهلاً؛ فإنما يكون الحب نمطًا للحياة والمعرفة يعكس العالمَ الأسمى، ولا بد أن يذيب الحبُّ الفواصل بينه وبين الخير المطلق، فالحب حركةٌ ووسيلة لكشف المعرفة الإلهية، وبالحب يهتدي الإنسان للحقيقة الأبدية وما يريح قلبه، طريق (الله) سبحانه، ويكون قلبه عرشًا للرحمة والتسامح، ومن يصل هذه المكانة بلا شك هو بعيد عن أي شذوذٍ عقلي أو فكري، فما يأتي به هنا هو العقلُ نفسه وأكثر.

وشاعرنا (سعدون) قد وصل لحب جعله ينقطع لصاحبه دون غيره، جعله لا يرى إلا (الله) سبحانه، ولا يهتم بسواه، ولا يألُ جهدًا في التقرب إليه (سبحانه) يقول (من الطويل):

هجرتُ الوَرَى في حب من جادَ بالنعم ///// و عِفْتُ الكَرَى شوقا إليه فلم أنم
ومَوَّهْتُ دهري بالجنون عن الوَرَى ///// لأكتمَ ما بي من هواه فما أنكتم
فلما رأيتُ الشوقَ بالحب بائحا ///// كشفتُ قناعي ثم قلتُ نَعَم نَعَم
فإن قِيْلَ: مجنونٌ فقد جَنَّنَي الهَوَى ///// وَحُرْمَةُ روحِ الأُنْسِ في حِنْدَسِ الظُّلَمِ
وحقُّ الهَوَى والحُبُّ والعهدُ بيننا ///// وإن قيلَ مِسْقَامٌ فما بِي مِن سِقَمِ

لقد لامني الواشُونَ فيك جَهَالَةً ///// فقلتُ لِطَرْفِي: أفصحَ العُذْرُ فاحتَشِم

فعاتَبَهُم طَرْفِي بغيرِ تَكَلُّمٍ ///// وأَخْبِرِهُم أنَّ الهَوَى يُوَرِّثُ السِّقَم

فبالحِلْمِ يا ذا المَنِّ لا تُبْعِدَنَّنِي ///// وقَرِّبْ مَزَارِي مِنْكَ يا بَارِئَ النِّسَم(١٨٤).

ما لا يبوح به العقلُ يظهره الجنونُ ويبوح به بوضوح؛ فالأمر متعلق بحب (الله) سبحانه، و(سعدون) هنا يرسِم أسباباً عقلانية منطقية لهجره الناس وانعزاله عنهم وإقباله الشغوف على رب الناس (الله) سبحانه، وتكفيه الإشارةُ عن الكلام ليعطي ويدلل على معاني هذا الحبِ الجارفِ والمرض الذي أصابه؛ وذلك بغية التقرب منه سبحانه، والبرهنة على حبه الجارف له، إنه يُسَلِّم تسليمًا كليًّاً له (سبحانه)، وينطق شعر (سعدون) بالمعاني الكثيرةِ والمتنوعة؛ فهو يدعو لمكارم الأخلاق والتقرب من (الله) تعالى بقوة، وعدم الالتفات والسير وراء ما يتفوه به الناس من ترهات، وأنه يجبُ الإقلالُ من الكلام غيرِ المجدي، ولا بد من مقاطعة الواشين، فإن (الله) سبحانه وتعالى هو المحبوب الأهم، والمستحق للسقم والسهر لأجله، وما حب (سعدون) له (لله) تعالى إلا عبر جنونه به والغوص في بحر حبه المتلاطم الأمواج، والذي لا يمل المحبُّ من الغوص في أعماقه يستخرج لآليءَ حبه وأصداف كرمه، وقد كان الشعراء المصابون والموسوسون متفرغين للحياة الروحية الزهدية، فهم على خلاف مختلي العقول الذين تألفهم في الحياة اليومية من ذوي التصرفات غير المسئولة بسبب اضطرابات أصيبوا بها في عقولهم أفقدتهم وألسنتهم الموعظة؛ لأن جنونهم ليس مرضًا ولكنه جنونٌ في طاعة (الله) سبحانه والتعلق به، وكان لهم دور كبيرٌ في تكوين الحياة الروحية وأدبها(١٨٥)، فالجنونُ هنا كان علاجًا وليس مرضا.

وحب (سعدون) هنا وانقطاعه (لله) سبحانه هو محاولةٌ من ذاته الإنسانية لاستكمال نقصه الذي يشعر به، وهو ليس النقص الذي يعني مرضًا نفسيًّا، لذا يرى أنه لن يكتمل هذا البناءُ إلا بالعودة إلى جزئه المفقود، وهو التوحد بمملكة الإله المتعالى فوق كل شيء، والحب هنا يُرَادُ منه معناه الذي هو القرب من (الله) سبحانه والتنعم

بالنظر إليه؛ ليس خوفًا من ناره، ولا رغبة في جنانه، وإنما هو الهيام بالجمال المطلق، وهذا الحب قد جُعِل سببًا لجنونه، وهذا لا يهم (سعدون)؛ فإنه "من أخذ في طريق المحبين يطوي بساط أطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها، والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها؛ لأنه حيث أشرقت عليه أنوارُ الحب الخاص خلع ملابسَ صفاتها ونعوتها"[١٨٦]، ومجاهدة النفس بالرياضة والتأمل الصادق لمحبته سبحانه يصل الإنسان بها للحصول على الكشف، وبذلك تصبح أمامه الحقائقُ واضحةً جليةً وهذه هي المحبةُ[١٨٧] والتي تجعل الإنسانَ هائمًا في الذات العليا لا ينفصل عنها ولا يرى سواها، وهذا ما كان عليه (سعدون) حتى اتُّهِم بالجنون.

ويريد (سعدون) التقرب أكثر من (الله) سبحانه، فيوضح في شعره أنه يتوارى عن الناس لأنه يجد رابطة روحية قد نشأت لتربطه به (سبحانه)، لذا رآه الناس مجنونًا، وما هذا إلا صبرٌ على مغريات الدنيا والبلاء المتمثل في الفتن والمِحَن، وما هذا بأفضل هنا للتدليل على عقلانية طاغية ونفس سوية تنعكس في مرآة شعره الذي أُثر عنه وعبر عن قريحته المتقدة وعقله اليقظ، والحب الروحاني هو الذي يسعى صاحبه في مرضاة المحبوب ولا تبقى له معه إرادة بل هو بحكم ما يراد به خاصته، فهما شيء واحد، وما الحب إلا مبادرة إلهية؛ ف(الله) سبحانه يذكر العبد ويطلبه ويعرفه ويحبه قبل أن يهتدي العبد إلى هذا الذكر والطلب والمعرفة والحب[١٨٨]، وما هذا الأمر بغائب عن (سعدون)، وهو يعي نتيجته جيدا، إنه الذوبان في حب خالقه (سبحانه) حتى إن اتهمه الجميع بالكفر والخروج من حيز العقل إلى آفاق الجنون، فها هو يقول مصورًا هذا (من الخفيف):

زعمَ الناس أنَّني مجنون ///// كيف أسلُو ولي فؤادٌ مَصُونُ

عَلُقَ القلبُ بالبُكا في الدياجي ///// وهو بالله مُغرَمٌ مَحــزُونُ[١٨٩].

إن (سعدون) لا ينفكُ متصلاً (بالله) سبحانه، وإن كان هذا الاتصالُ سيوصله لمن يُحِبُّ عبر الجنون فمرحباً به (الجنون) دائمًا، وعند اختراق مكنون العبارات الشعرية نجد أن الحب والبكاء هما من أسلحة (سعدون) الفعالة في حربه مع نفسه ليصل بها إلى اليقين الحقيقي والحب الدائم، حب (الله) سبحانه، وهو يبكي شوقًا وحرقةً نتيجة تلك الألسنة من اللهب التي تلهب قلبه وكيانه كله، لذا يأتي الاستفهام: كيف أسلو ولي قلب مصون؟ ليعطي معاني الإنكار التوبيخي، وربما يعكس بكاءُ (سعدون) بكاءه لمعرفة الموت الذي هو نهاية الحياة التي يتنازع عليها الناسُ في غفلة منهم، وهذا يبرهن على عدم فقده لعقله بل إن المجنون ليس من فقد عقله لتفكره في نهاية لا تستحق صراعًا أو هروبًا إلى الهلاك الأكبر من الهلاك الأصغر، من الدنيا إلى جهنم وبئس القرار، فالمنطق هو ما يحرك (سعدون) ويقوده للاتصال بالمنقذ الحقيقي (الله) سبحانه، وذلك عبر التزام نواهيه وإتيان أوامره، فإن كان هذا فكيف إذن فقد عقله؟! وهو لا يبوح بحبه هذا لأحدٍ إلا لخالقه (سبحانه)؛ فإنه " كثيرًا ما تَهُبُّ على قلوب العارفين نفحاتٌ إلهية ولو نطقوا بها جَهَّلَهُم كُمَّلُ العارفين"[١٩٠]، وأنهم (المتصلين ب(الله) سبحاته والذائبين في حبه لهم لغتهم الخاصة التي قد لا يفهمها الكثير؛ فهم" يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خَلَواتِهم أشياءَ هي كُفرٌ عند العامة .... ولو سمعها العمومُ لكفَّروهم"[١٩١]، لذا فلا عجب أن اعتزل (سعدون) الناسَ إيثارًا للسلامة من ذوي العقول المحدودة، وهم يحسبون أنهم يعقلون شيئًا، ويتوارى ويبكي شوقًا إلى رؤية (الله)سبحانه؛ فقد أضناه البعدُ والشوق، وهو يأمل أن يكون بكاؤه شفيعًا له عنده (سبحانه) فينال القربَ والمنزلةَ الحقيقيةَ التي لطالما أَمِلَهَا كلُ المحبين والطائعين.

ولا تخفى فعاليةُ الأساليب الخبرية في قوله: علق القلب... ، وهو بالله مغرم... التي تفيد التأكيد على قلب جيد ناضج تعلق بما رأى ليس لعينين توجدان بل لنور قد أنار قلبه لا يُوضَع إلا في المُحبين المنقطعين (لله) وقد أثقله الحب حتى قاسمه الجنونُ المكانةَ فألقيا في جسده السِقَمَ والمرض بل ومنحه الجنونُ حريةً لم يكن يعهدها دون

نفاق أو مواربة، فهو قد جعله يتمتع برفضٍ سلبي لواقع خاطيء مرير، فالمحبةُ إذن يراها الناس جنونًا؛ لفرط تعلقه بمحبوبه، وما هو (الجنون) إلا تعبيرٌ قويٌّ عن خلاصه من الحياة والدنيا البائسة هذه، وذهابه إلى طريق ممهد يؤدي به لمبتغاه وللحياة الحقيقية والمستمرة، فالاغتراب الذي يراه الناسُ عليه هو حبٌ وتعلق بمن يستحق، وأكثر، هذا الانقطاع والخلوة له وحده، إنه رب العالمين (الله) سبحانه.

ويحلق الحبُّ ب (سعدون) لمكانة لا يدركها العاقلون، إن حبه (لله) سبحانه فوق مستوى الوعي والإدراك؛ فهو أمر يُحس ولا يُرى، وشتان بين الإحساس والحَس، لذا فالأنسُ معه له مذاقُهُ الخاصُ الجميل، والقرب منه له أثرهُ القويُّ على القلب والجسد بل والعقل، ونراه يصور هذا في قوله (من الوافر):

أَنِسْتُ به فلا أبغِي سِوَاهُ ///// مَخافَةَ أن أَضِلَّ فلا أَرَاهُ

فَحَسْبُك حَسْرَةً وضَنَىً وسِقَمَا ///// بطردِكَ من مَجَالِسِ أولِيَاهُ(١٩٢).

أُنْسٌ قد تحقق ورؤيةٌ ثاقبةٌ للحقيقة الغائبة ذلك ما حاذه (سعدون) من جنونه العاقل، أما إذا فقد الأنس وغابت شمس المعرفة فلا مكان إلا للبؤس والضنى والسقم والبعد المميت عن المحبوب، وإن كان (سعدون) قد أصيب بالجنون فهو لا ينظر لنفسه هكذا، إنما هو هائمٌ في حب من يستحق كل الحب، ولأنه قد أصيب بالجنون لشدة حبه (لله) سبحانه، فهو انقطع بحبه (لله) وحده، وحبُّهُ هنا سلوكٌ قويمٌ يوصله لحالة من التجرد التام عن كل ما يحيط به من مغريات الحياة والبعد عن (الله) سبحانه، والحب والأنس هنا مرتبطان بالحالة النفسية السامية التي محلها القلب وليس العقل، والمحبوب هو الأشرف والأجمل والأكمل، إنه الحق (سبحانه) الذي تنطوي تحت لوائه كلُ الأمور والقيم والكمال، هو، ولا شيء غيره (سبحانه).

والمحبةُ هنا ذات طابع روحاني باطني لا يُكْشَفُ سِرُّهُ إلا بممارسة ورياضةٍ للوصول إلى حقيقة الجوهر الثابت، ورؤية ما فوق الحُجُب، وهو حضور(الله) وحده في القلب، فلا يرى المُحِب إلا واحدًا، وتفنى نفسُهُ في الوجود، ولا يرى سوى محبوبه؛

فرؤيته قد فنيَت، فالمحبةُ هنا سرٌّ في القلب من المحبوب إذا نبتت قطَّعتكَ عن كل مصحوب، فمحبةُ العبد (لله) تعالى حالة تكون في القلب تلطف عن العبارة وما خفي منها والمحبة لا توصف بوصف ولا تُحَدُّ بحدٍّ .... والمحبة هي أن تغار على المحبوب، وقيل هي: الخروج عن البدن والروح لأن الحب مزكًّى عن حرفين الحاء والباء...، ووجود الخليل مستهلك في وجوده، فإذا تكلم فيه وإذا سكت فهو نصب عينيه في كل حال، فالمحبوب حالٌّ في الحبيب لا يبرحه بتاتًا[١٩٣]، فهما قد اتحدا بقوة لا تقبل الانفصال أبدًا.

وشعرُ (سعدون) هنا يصورُ خلجاتِ نفسهِ في حبها الجارف وأنسِهَا القوي في جوار (الله) سبحانه، فالمحبُ يشهد الأمورَ والأشياء بعين حبيبه لا بعينه هو؛ فأنا أنت وأنت أنا، والحبُّ هذا يورِّث شوقًا مقلقاً وسهرًا وسقمًا ومعاناةً مضنية، وهي تشكل حالَ المحب بقوة، وقد قال عنها (ابنُ عربي):"وألطف ما في الحب ما وجدته، وهو أن تجد عشقًا مفرطًا، وهوى وشوقًا مقلقًا، وغرامًا، ونحولاً، وامتناعَ نوم، ولذة طعام، ولا يدري فيمن ولا بمن، ولا يتعين لك محبوبك وهذا ألطف ما وجدتُه ذوقًا"[١٩٤]. والشاعر هنا حين يصور حبه الإلهي فهو يعكس حيرة وجودية بالحب والمعرفة؛ لأن معرفة (الله) سبحانه تثير دهشًا وحيرة لدى العرف لها؛ فالحيرة قلق وحركة والحركة حياة وربما كان الجنون هو الحركة التي تدور في سكون العقلانية هنا، فهو يعترض على هذا العقل المحدود، فهو لا يستطيع الوصول (لله) سبحانه؛ كونه محدودًا، أما الجنونُ فهو تحرير العقل من عقاله فيتحد مع القلب ويحاولان الوصول للحقيقة المأمولة، ويكون النقصان الذي به قد اكتمل بالعودة إلى الجزء المفقود الأكبر، وهو التوحد بمملكة الإله المتعالي (سبحانه)، وهكذا فقد سيطر الحب الإلهي وارتبط بالإدراك الناقص عند من لم يصل إليه فيتهم من قبل الناس بالجنون- كسعدون، وغيره. وما هذا بجنون؛ إنه اكتمال العقل في أن تصل إلى معرفة الحقيقة الكلية (الله) سبحانه، والتقرب إليه والذوبان في ذاته العليا.

نتائج البحث:

١- يأتي الجنون أحيانًا نتيجة مفرطة للعقلانية التي فاقت عند صاحبها الحد وتجاوزت القدرات النهائية لعقله.

٢- الجنون قسيم العقل في الإبداع لا سيما في الأعمال الأدبية الشعرية.

٣- كان (سعدون) من عقلاء المجانين وليس من مجانين العقلاء؛ فمجانين العقلاء من فقدوا عقولهم كلية وربما يكون هذا لمرض وراثي، أما عقلاء المجانين فمن فقدوا عقولهم نتيجة أمر ما ولكن ليس فقدًا كليًّاً فالموقف المتسبب في الجنون باندثاره يعود العقل ثانية أو يمكن العودة للعقل بعلاج ما؛ فهو طاريء، وهكذا يثبت الشعر هنا ما آثر النيسابوري وغيره لتسمية (سعدون) به: أنه كان من عقلاء المجانين.

٤- الجنون الأدبي ليس ذلك الجنون المعروف؛ فهو الخروج على العقل وعدم التقيد بالمسلمات؛ وهذا لأن الإبداع هو خروج على العقل أحيانًا لتحرره من الأفق المحدود وانطلاقه لأفق أرحب لا تحده حدودٌ.

٥- كانت العقلانية انعكاسًا للجنون العقلاني عند (سعدون) وتمثلت في شعرٍ عبر بقوة عن رؤية متفردة لبواطن الأشياء من حول الإنسان، كالموت، والزهد، والدنيا، والحياة، والجنة، وما بها من نعيم.

٦- كانت العقلانية الذاتية الخاصة بالنفس الشاعرة التي أفرزها الجنون عند سعدون متمثلة في زهده وانقطاعه عن الدنيا التي يراها من المُهلكات، والحب الإلهي الذي فيه وصل نفسه (بالله) سبحانه.

٧- كان الجنون خلاقًا عند (سعدون) أفرز أنماطًا شعرية دلت على موضوعية ورؤية منهجية قوية حول قضايا انعكست صورها في العقلانية الموضوعية التي تمثلت في شعر الوصف لأمور مجردة كالموت والحياة، وأمور كان العقل الطريق الأوحد الإيمان بها، كالجنة والحساب والعقاب، والنصح والإرشاد إلى بعض الأمور كالزهد وفعل الخير، والتنفير من أخرى كضرورة البعد عن مصاحبة إناس السوء، وعدم الاغترار بالدنيا والركون إليها. وأيضًا كان هناك شعر العتاب والشكوى مما شاع في عصره من مفاسد وبعدٍ عن النهج القويم.

٨- لم يشذ (سعدون) في شعره وأغراضه عن السابقين والمعاصرين له من الشعراء بل دار في فلك أغراضهم، وبنية الشعر لديه لم تختلف عنهم بنية وموضوعًا، وهذا يعكس تأثره بهم، وهي إحدى دلائل عقلانيته.

٩- لم يقف الجنون عند (سعدون) عند الذهاب للعقل بل كان سببًا في انطلاق عقله، وكان سببًا في اتصاله بكبار الخلفاء، ك (هارون الرشيد) و(المأمون) وغيرهما، فقد كان مشخصًا لأحوال عصره ومشكلاته.

١٠- تقييم الجنون يجب أن يكون من الأفعال والمرئي منها وليس بما يسمع ويؤثر عن الشخص دون سند.

١١- العقلانية في الأعمال الأدبية تقيم بمحتواها وأهدافها وليس بالنظر إلى صاحبها ومكانته، لذا فالشعراء المغمورون يجب أن تُوجه أسهُمُ الدراسة صوب شعرهم تقتنص منه الغاليَ والنفيسَ.

١٢- كان الشعر الماثل في تراث (سعدون) صورةً ناطقة لعصره وما به من تناقضات وقضايا حياتية، فقد عكس شعره وتراثه الذي أتى به تناقضًا عليه مجتمعه فهو أحيانًا يظهر منه غيرُ باطنه الحقيقي، تماما كالجنون الذي يبدو عليه (سعدون) والذي يضمر بداخله عقلانية متقدة تنطق بها جنباته، تمامًا كالأرض الساكنة التي تشتعل وتتقد داخلها براكينٌ ملتهبةٌ توشك أن تنفجر، فاللهيب قد جاور البرود والسكون، فليس كل سلبي سيييءٌ كله.

١٣- كان الجنونُ قسيم العقل في شعر (سعدون) وهذا يؤكد أن الشعراء المجانين لم يكونوا مجانين لذهاب عقولهم؛ بل لكونهم قد اخترقوا حُجُب العقل وصوروا برؤية مغايرة ما يشعرون به، وربما كان ذلك نقيض ما أتى به الشعراء العاديون غير فاقدي العقل.

١٤- ربما يكون جنون (سعدون) رفضًا لما كان في عصره من أمور رآها لا تسير وفق العقل فاتجه للجنون عله يجد تفسيرًا لها، كقضايا الانسياق وراء الملذات وغيرها.

١٥- إن التسمية الأقرب للصواب لما كان عليه (سعدون) هي: شاعر موسوس أو مصاب، أما مجنون فهي من الإجحاف والظلم له؛ فلم يكن مجنونًا إلا حين يبدع وينصح.

الهوامش

(١) كتاب الوافي بالوفيات، جزء١٥، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: احمد الأرناؤوط، وتزكي مصطفى، صـ١١٩.

(٢) المرجع نفسه، صـ١١٩.

(٣) طبقات الصوفية، المسمى (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية)، يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ، ١٩٣١م)، جزء ٤، تحقيق: محمد أديب الجادر، صـ٣٢٣.

(٤) المرجع نفسه، صـ٣٢٣.

(٥) كتاب الوافي بالوفيات، جزء١٥، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، صـ٣٢٣.

(٦) ديوان المصابين، شعر الموصوفين بالمجانين والموسوسين في العصر العباسي، أبو الطاهرعبد المجيد الإسداوي، صـ ١٣١.

(٧) المرجع نفسه، صـ١٣١.

(٨) طبقات الصوفية، المسمى (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية)، يوسف بن إسماعيل النبهاني، صـ٣٢٣

(٩) انظر: عقلاء المجانين والموسوسين، أبو محمد الحسن بن إسماعيل الضراب (ت ٣٩٢)، تحقيق: إبراهيم صالح، صـ٢٧.

(١٠) عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، صـ٥٤.

(١١) عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، صـ٥٥.

(١٢) انظر: فيض الخاطر، أحمد أمين، صـ١٢٨.

(١٣) المرجع نفسه، صـ١٢٨.

(١٤) المرجع نفسه، صـ ١٣٥.

(١٥) راجع: عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، صـ١١٤، وعقلاء المجانين والموسوسين، أبو محمد الحسن بن إسماعيل الضراب، صـ٢٧، ومعجم المجانين من الشعراء، قيس كاظم الجنابي، صـ١٠٨، وجامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق: إبراهيم عطوة إبراهيم، الجزء الثاني، صـ٩٢.

[١٦] روض الرياحين في حكايات الصالحين، عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني (٦٩٦- ٧٦٨هـ)، تحقيق: محمد عزت، صـ٥٧.

[١٧] أولياء الله عقلاء ليسوا مجانين، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد شاكر الشريف، صـ٢١.

[١٨] جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني، صـ٩٢.

[١٩] المرجع نفسه، صـ٩٢.

[٢٠] جامع كرامات الأولياء، يوسف ابن إسماعيل النبهاني، صـ٩٢.

[٢١] انظر: عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، صـ١٢٥.

[٢٢] نفسه، صـ١٣٠

[٢٣] نفسه، صـ١٣١.

[٢٤] عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، صـ١٢٩.

[٢٥] سورة المؤمنون، ١٠١.

[٢٦] راجع: عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، صـ١٢٩، و١٣١.

[٢٧] نفسه، صـ١٣٥.

[٢٨] نفسه، صـ١٣٨.

[٢٩] نفسه، صـ١٣٨.

[٣٠] راجع: المرجع نفسه، صـ١٣٥، و١٣٦، و١٣٧.

[٣١] طبقات الصوفية، إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن، الطبقات الصغرى، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد أديب الجادر، صـ ٣٢٤.

[٣٢] الطبقات الكبرى، المسمى (لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية)، عبد الوهاب الشعراني، الجزء١، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السائح، وتوفيق علي وهبة، صـ٩٧.

[٣٣] طبقات الصوفية، إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن، الطبقات الصغرى، محمد عبد الرؤوف المناوي، جزء٤، صـ٣٢٤

[٣٤] عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، صـ١٣١.

[٣٥] لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، مادة (جنن)، صـ٧٠٢.

[٣٦] المرجع نفسه، مادة (جنن)، صـ٧٠٣.

[٣٧] تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، كلود كيتل، ترجمة: سارة رجائي يوسف وكرستينا سمير فكري، صـ ١٩١.

[٣٨] انظر: معجم المجانين من الشعراء، قيس كاظم الجنابي، صـ١٧٧.

[٣٩] المرجع نفسه، صـ١٤٣، و١٧٥، و١٠١، و٩٥، و٩٢، و٨٨.

[٤٠] عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، صـ ٨.

[٤١] الفوائد. (الغيلانيات)، أبو بكر البزار محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدون البغدادي الشافعي، (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: حلمي كامل أسعد، جزء ١، صـ٣٧٦.

[٤٢] سورة القمر،٩.

[٤٣] راجع: عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، صـ١٩: ٢٣.

[٤٤] المرجع نفسه، صـ٣٠، و٣٣، و٣٤، و٣٧.

[٤٥] المرجع نفسه، صـ١٩، و٢٠.

[٤٦] سورة الأنعام، ٧٦.

[٤٧] سورة الكهف، ٥٠.

[٤٨] سورة الأعراف، ١٨٤.

[٤٩] سورة الصافات، ١٥٨.

[٥٠] الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع الهجري، أحمد خصخوصي، صـ٦ بتصرف.

[٥١] لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، مادة (جنن)، صـ٧٠٣.

[٥٢] راجع: الفوائد. (الغيلانيات)، أبو بكر البزار محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدون البغدادي الشافعي، صـ٣٧٦ وعقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، صـ٣٠-٣١.

[٥٣] الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية لأواخر القرن الرابع، أحمد خصخوصي، صـ٤٤.

[٥٤] ميزان العمل، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، صـ٢٧٥، و٢٧٦.

[٥٥] إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، جزء٣، ص٥٤.

[٥٦] تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، كلود كيتل، ترجمة: سارة رجائي يوسف وكرستينا سمير فكري، صـ٢٧.

[٥٧] المرجع نفسه، صـ٢٧.

[٥٨] المرجع نفسه، صـ٢٨.

[٥٩] تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ميشال فوكو، ترجمة: سعيد بنكراد، صـ٧٥.

[٦٠] الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، جزء١ ، صـ٦١. .

[٦١] "باقل" هو رجل يُضرب به المثل في العيّ، يقال: "أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ"، وقيل إن أمه كانت تُعَلِّمُه طوال النهار اسمه، وحين يحلّ المساء ينساه مجدداً، حتى لجأت في النهاية إلى وَضْعِ قلادةٍ في رقبته مكتوب عليها اسمه، وفي يوم ما، نام وهو يضعها، وحين استيقظ وجد أخاه يلبسها فقال له: "أنت أنا فمن أكون أنا"؟، وهو رجل من إياد، قال أبو عبيدة: باقل رجل من ربيعة، بلغ من عِيِّه أنه اشترى ظبياً بأحدَ عشَرَ درهماً، فمر بقوم فقالوا له: بكم اشتريت الظبي؟ فمد يده ودلعَ لسانه يريد أحد عشر، فَشَرَدَ الظبي وكان تحت إبطه، راجع: مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ) تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، جزء ٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان، صـ٤٣.

[٦٢] تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ميشال فوكو، صـ٥٢.

[٦٣] المرجع نفسه، صـ٥٦.

[٦٤] المرجع نفسه، صـ٥٦.

[٦٥] المرجع نفسه، صـ٥٦.

[٦٦] كنز الكتاب ومنتخب الآداب، أبو إسحاق إبراهيم بن الفهري الشريشي (المعروف باليونسي)، (ت٦٥١هـ)، جزء٢، تحقيق: حياة شرارة، صـ ٥٤٠.

[٦٧] المرجع نفسه، صـ٥٤٢.

[٦٨] إنسان مفرط في إنسانيته، كتاب العقول الحرة، فريدريك نيتشه، جزء١، تحقيق: محمد الناجي، صـ٣٥.

[٦٩] لسان العرب، ابن منظور، مادة عقل، صـ٣٠٤٦.

(٧٠) معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، صـ١٢٨.

(٧١) المرجع نفسه، صـ١٢٨.

(٧٢) سورة (ص)، آية ٢٩.

(٧٣) العقلانية، فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، صـ١٤.

(٧٤) سورة الإسراء، آية٨٥.

(٧٥) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، جزء٤، صـ١٨، و١٩.

(٧٦) راجع: الفتوحات المكية، ابن عربي، جزء١، صـ ١٣٩.

(٧٧) العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن، صـ٢٥.

(٧٨) كشف المحجوب، أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي الهجويري، كشف المحجوب، تعريب وتحقيق: إسعاد عبد الهادي، صـ ٢٤٨.

(٧٩) فلسفة العقل عند توماس ريد، محمود سيد أحمد، صـ٣٢.

(٨٠) المرجع نفسه، صـ٣٣.

(٨١) راجع: عقلاء المجانين: النيسابوري، وفوات الوفيات: الصفدي، وجامع كرامات الأولياء: يوسف ابن إسماعيل النبهاني، وطبقات الصوفية، يوسف بن إسماعيل النبهاني.

(٨٢) ديوان المصابين، شعر الموصوفين بالمجانين والموسوسين في العصر العباسي، أبو الطاهرعبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٤.

(٨٣) المرجع نفسه، صـ١٣٤.

(٨٤) سورة الزلزلة، آية ٧، و٨.

(٨٥) سورة يس، آية١٢.

(٨٦) سورة النجم، الآيات: ٣٩، و٤٠، و٤١.

(٨٧) ديوان المصابين، عبد الحميد الإسداوي، صـ١٣٩.

(٨٨) البداية والنهاية، عماد الدين بن إسماعيل الدمشقي (٧٠١ – ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، جزء١٣، صـ٦٧٥، و٦٧٦.

(٨٩) سورة البقرة، آية ٢١٩.

(٩٠) لسان العرب، ابن منظور، مادة (صبح)، صـ٢٣٩١.

(٩١) المرجع نفسه، صـ١٩٣.

(٩٢) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣١.

(٩٣) انظر: عقلاء المجانين، أبو القاسم بن حبيب النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، صـ١٢٩.

(٩٤) سورة المؤمنون، آية ١٠١.

(٩٥) ديوان المصابين، عبد الحميد الإسداوي، صـ١٤٢.

(٩٦) الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية لأواخر القرن الرابع، أحمد خصخوصي، صـ٥٤.

(٩٧) العقلانية التطبيقية، غاستون باشلار، ترجمة: بسام الهاشم، صـ٢٢٠.

(٩٨) العبقرية والجنون، يوسف ميخائيل أسعد، صـ٣٠.

(٩٩) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٢، و١٤٣.

(١٠٠) راجع: الشاعر والشعور والشعر، مقال لدياب موسى الخوري.

(١٠١) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٤.

(١٠٢) العقلانية التطبيقية، غاستون باشلار، صـ٧٦.

(١٠٣) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٥.

(١٠٤) طبقات الصوفية، إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن، الطبقات الصغرى، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد أديب الجادر، صـ٣٢٤.

(١٠٥) راجع: التصوف والفلسفة، ولتر ستيس، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، صـ٢٠٣.

(١٠٦) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٥٢، و١٥٣.

(١٠٧) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء٤، تحقيق: عبد السلام هارون، صـ٢٩:٢٧.

(١٠٨) راجع: شعر الموسوسين في العصر العباسي، أبو الطاهر عبد المجيد الإسداوي، ص ٤١.

(١٠٩) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، جزء٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صـ١٦٠.

(١١٠) تحرير المعنى (دراسة في ديوان أدونيس"الكتاب١")، أسيمة درويش، صـ٢٠٩.

(١١١) ديوان المصابين، صـ١٣٠.

(١١٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، صـ٢٦٠بتصرف.

[١١٣] راجع: البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، ص٤٣١.

[١١٤] نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان، محمد صديق حسن خان، ص ١٠٤.

[١١٥] شاعر الإسلام، حسان بن ثابت، صـ١٢٦.

[١١٦] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ ١٥٧.

[١١٧] سورة النساء، آية ٨٦.

[١١٨] بسيوني عبد الفتاح فيود، دراسات بلاغية، ص٥١ بتصرف .

[١١٩] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٦١.

[١٢٠] روض الرياحين في حكايات الصالحين، عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني، صـ٥٧.

[١٢١] جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني، جزء٢، صـ٩٢.

[١٢٢] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٢.

[١٢٣] العمدة في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، صـ٢٩٤، و٢٩٥.

[١٢٤] الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي، تحقيق: عثمان يحيى، جزء٢، ، صـ٥٢٢.

[١٢٥] فلسفة العقل عند توماس ريد، محمود سيد أحمد، صـ١٠١:١٠٠.

[١٢٦] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٥.

[١٢٧] سورة الذاريات، آية: ٥٧، و٥٨.

[١٢٨] وردت في سور: سبأ: آية٣٩، والملك: آية ٢١، والزمر: آية ٥٢، وغافر: آية ١٣، والملك: آية١٥، والبقرة: آية ٢٥، والعنكبوت: الآيات من ٦٢:٦٠، ويس: آية ٣٦:٣٢، والعنكبوت: ١٧:١٦. وذكر الرزق في مواضع أخرى أيضًا.

[١٢٩] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٦.

[١٣٠] تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ميشيل فوكو، صـ١٨٦.

[١٣١] تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ميشيل فوكو، صـ١٨٦، و١٨٧.

[١٣٢] الخود: الشابَّةُ النَّاعِمَةُ الحَسَنَةُ الخَلْقِ

[١٣٣] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٩ ، و١٤٠. الشابَّةُ النَّاعِمَةُ الحَسَنَةُ الخَلْقِ.

(١٣٤) انظر: فن الوصف وتطوره في الشعرالعربي، إيليا الحاوي ، صـ١٥.

(١٣٥) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين، صـ٢٩٤، و٢٩٥.

(١٣٦) سورة الرحمن، الآيات:٧٢، و٧٣، و٧٤.

(١٣٧) سورة الواقعة، الآيات: ٢٢، و٢٣، و٢٤.

(١٣٨) راجع: لغة الشعر، محمد حماسة عبد اللطيف، صـ٣٧٢، و٣٧٣.

(١٣٩) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٧.

(١٤٠) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، جزء١، صـ٤١٨.

(١٤١) حركية الإبداع، خالدة سعيدة، صـ٣٤.

(١٤٢) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، ص ١٥٦.

(١٤٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.

(١٤٤) سورة الرعد، آية: ٢٦.

(١٤٥) سورة الملك، آية:٢.

(١٤٦) راجع: البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، علي علي صُبح، صـ١١.

(١٤٧) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٦٤.

(١٤٨) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، جزء ٤، صـ٢٧: ٢٩.

(١٤٩) تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ميشيل فوكو، صـ٥٥.

(١٥٠) الديوان، صـ١٦٣.

(١٥١) سورة البقرة، آية ١٩٧ .

(١٥٢) راجع: العصر العباسي الثاني، أمين أبو الليل، صـ٩٠.

(١٥٣) راجع: الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، عبد الله التطاوي، صـ٣٠١ بتصرف.

(١٥٤) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٤.

(١٥٥) تاريخ الجنون في العصرالكلاسيكي، ميشيل فوكو، ترجمة: سعيد بنكراد، صـ٣٥.

(١٥٦) انظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، صـ١٤٤-١٤٦.

(١٥٧) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٦.

(١٥٨) معجم لسان العرب، ابن منظور، صـ٢٧٣٣ .

(١٥٩) راجع: تحرير المعنى، أسيمة درويش، دراسة نقدية في ديوان أدونيس، صـ٢٠٩.

(١٦٠) الشعرية العربية (دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي)، جزء٢، نور الدين السد، صـ١١٦.

(١٦١) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٥٠.

(١٦٢) راجع: بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، سيزا قاسم، صـ١٨١.

(١٦٣) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٥٤.

(١٦٤) موجز تاريخ الجنون، روي بورتر، ترجمة: ناصر مصطفى، صـ٧٢ بتصرف.

(١٦٥) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٥٥.

(١٦٦) انظر: علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، صـ ٢١٧بتصرف.

(١٦٧) حركية الإبداع، دراسة في الأدب العربي الحديث، خالدة سعيد، صـ٩٢.

(١٦٨) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٦٥.

(١٦٩) راجع: أدب الزهد في العصر العباسي، عبد الستار السيد متولي، صـ٤.

(١٧٠) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٣٣.

(١٧١) راجع: عقلاء المجانين، أبو القاسم النيسابوري، تحقيق: أبو هاجر محمد السيد، صـ٥٣.

(١٧٢) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ ١٤٠، و١٤١.

(١٧٣) رسائل ابن حزم الظاهري، ابن حزم الظاهري، جزء١، تحقيق: إحسان عباس، صـ٩٨، و٩٩.

(١٧٤) الصوفية والسوريالية، أدونيس، صـ٩٧.

(١٧٥) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٣.

(١٧٦) المختصر في المصطلحات الصوفية، وذناني بو دود، صـ٩.

(١٧٧) ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٤٣.

(١٧٨) أدب الأخلاق، ولتر ستيس، صـ٢٠٣.

(١٧٩) الفتوحات المكية، ابن عربي (محيي الدين)، جزء٤، تحقيق: أحمد شمس الدين، صـ٣٢٢.

(١٨٠) نفسه، صـ٢٣٢.

(١٨١) سورة المائدة، آية ٥٤.

[١٨٢] صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، كتاب الرقاق باب التواضع (حديث رقم: ٦٥٠٢).

[١٨٣] راجع: الشعر العباسي، التيار الشعبي، سعد إسماعيل شلبي، صـ١١٧.

[١٨٤] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ ١٥٨، و١٥٩.

[١٨٥] انظر: مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر العباسي(١٣٢هـ – ٢٣٢ هـ)، مصطفى بيطام، صـ١٩٩، و٢٠٠.

[١٨٦] التصوف الإسلامي الخالص، أبو الفيض المنوني، صـ١٤٢.

[١٨٧] راجع: ابن عربي، فصوص الحكم، حققه وعلق عليه: أبو العلا عفيفي، صـ١١٨.

[١٨٨] انظر: الفتوحات المكية، ج٣، ابن عربي (محيي الدين)، صـ١٣٢.

[١٨٩] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٦٠.

[١٩٠] لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية المعروف بـ(الطبقات الكبرى)، جزء١، عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، صـ٢٨.

[١٩١] إحياء علوم الدين، جزء٤، محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الشهير ب(أبو حامد الغزالي)، صـ٣٤١ بتصرف.

[١٩٢] ديوان المصابين، عبد المجيد الإسداوي، صـ١٦١، و١٦٢

[١٩٣] جامع الأصول في الأولياء(الطرق الصوفية)، أحمد النقشبندي الخالدي الكمشخناوي، صـ٢٩٨، و٢٩٩ بتصرف.

[١٩٤] الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي (ابن عربي)، مجلد٢، صـ٣٢٣، و٣٢٤.

مصادر البحث ومراجعه:

(١) القرآن الكريم.

(٢) إحياء علوم الدين، محمد بن محمد بن محمد الغزالي (أبو حامد الغزالي)، جزء٣، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٢م.

(٣) إحياء علوم الدين، جزء٤، محمد بن محمد بن محمد الغزالي،(أبو حامد الغزالي)، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

(٤) أدب الأخلاق، ولتر ستيس، آفاق للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٩م، صـ٢٠٣.

(٥) أدب الزهد في العصر العباسي، عبد الستار السيد متولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

(٦) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، جزء١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.

(٧) أولياء الله عقلاء ليسوا مجانين، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد شاكر الشريف، دار طيبة للطباعة، الرياض، ط١، ١٩٨٠م.

(٨) البداية والنهاية، عماد الدين بن إسماعيل الدمشقي (٧٠١ – ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، جزء١٣، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

(٩) بسيوني عبد الفتاح فيود، دراسات بلاغية، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

(١٠) البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

(١١) بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٤.

(١٢) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، علي علي صُبح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ط، ١٩٩٦م

(١٣) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء٤، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ط١، ١٩٤٩م.

(١٤) تاريخ الجنون في العصرالكلاسيكي، ميشيل فوكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٦

(١٥) تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، كلود كيتل، ترجمة: سارة رجائي يوسف وكرستينا سمير فكري،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م.

(١٦) تحرير المعنى (دراسة في ديوان أدونيس"الكتاب١")، أسيمة درويش، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

(١٧) التصوف الإسلامي الخالص، أبو الفيض المنوني، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط

(١٨) التصوف والفلسفة، ولتر ستيس، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م.

(١٩) جامع الأصول في الأولياء(الطرق الصوفية)، أحمد النقشبندي الخالدي الكمشخناوي، تحقيق: أديب نصر الله، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

(٢٠) جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق: إبراهيم عطوة إبراهيم، الجزء الثاني، ط١، مركز أهلنسة بركات رضا فوربندر غجرات، الهند، ٢٠٠١م.

(٢١) حركية الإبداع، دراسة في الأدب العربي الحديث، خالدة سعيد، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.

(٢٢) الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع الهجري، أحمد خصخوصي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

(٢٣) ديوان المصابين، شعر الموصوفين بالمجانين والموسوسين في العصر العباسي، أبو الطاهرعبد المجيد الإسداوي، مكتبة عرفات، الزقازيق، ٢٠٠٢م.

(٢٤) رسائل ابن حزم الظاهري، ابن حزم الظاهري، جزء١، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

(٢٥) روض الرياحين في حكايات الصالحين، عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني (٦٩٦- ٧٦٨هـ)، تحقيق: محمد عزت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ود.ط،

(٢٦) شاعر الإسلام، حسان بن ثابت، وليد الأعظمي، الكويت، د.ت.

(٢٧) الشعر العباسي، التيار الشعبي، سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت.

(٢٨) الشعرية العربية (دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي)، جزء٢، نور الدين السد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، ٢٠٠٧م.

[٢٩] صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، دار السلام للنشر والتوزيع- الرياض، السعودية، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

[٣٠] الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، عبد الله التطاوي، دار غريب للطباعة، القاهرة.

[٣١] الصوفية والسوريالية، أدونيس، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩١م.

[٣٢] طبقات الصوفية، إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن، الطبقات الصغرى، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد أديب الجادر، جزء٤، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، د.ط.

[٣٣] طبقات الصوفية، المسمى (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية)، يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠هـ، ١٩٣١م)، جزء ٤، تحقيق: محمد أديب الجادر، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

[٣٤] الطبقات الكبرى، المسمى (لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية)، عبد الوهاب الشعراني، الجزء١، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السائح، وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

[٣٥] العصر العباسي الثاني، أمين أبو الليل، مؤسسة الوراق للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٧م.

[٣٦] العقلانية التطبيقية، غاستون باشلار، ترجمة: بسام الهاشم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٤م.

[٣٧] العقلانية، فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط١، د.ت.

[٣٨] عقلاء المجانين، أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

[٣٩] عقلاء المجانين والموسوسين، أبو محمد الحسن بن إسماعيل الضراب(ت ٣٩٢)، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.

[٤٠] علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م.

[٤١] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٥، ١٤٠١هـ، ١٩٧٩م.

[٤٢] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، جزء٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

(٤٣) العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن، شركة بابل للطباعة، الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٩م.

(٤٤) الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي، تحقيق: عثمان يحيى، جزء٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٤٥) الفتوحات المكية، ابن عربي (محيي الدين)، جزء٤، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

(٤٦) الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي (ابن عربي)، مجلد٢.

(٤٧) فلسفة العقل عند توماس ريد، محمود سيد أحمد، دار التنوير، بيروت، لبنان، ٢٠١١م.

(٤٨) فن الوصف وتطوره في الشعرالعربي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، د.ت.

(٤٩) الفوائد (الغيلانيات)، أبو بكر البزار محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدون البغدادي الشافعي، (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: حلمي كامل أسعد، جزء ١، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، د.ت.

(٥٠) فيض الخاطر، أحمد أمين، الجزء الثاني، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م.

(٥١) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، جزء٤، المؤسسة العربية للطبع والنشر، ودار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

(٥٢) كتاب الوافي بالوفيات، جزء١٥، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: احمد الأرناؤوط، وتزكي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،٢٠٠٠م.

(٥٣) كشف المحجوب، أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي الهجويري، كشف المحجوب، تعريب وتحقيق: إسعاد عبد الهادي قنديل، الإسكندرية، ط١، ١٩٧٤م.

(٥٤) كنز الكتاب ومنتخب الآداب، أبو إسحاق إبراهيم بن الفهري الشريشي (المعروف باليونسي)، (ت٦٥١هـ)، جزء٢، تحقيق: حياة شرارة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.

(٥٥) لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

(٥٦) لغة الشعر، محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

[٥٧] لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية المعروف بـ(الطبقات الكبرى)، جزء١، عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

[٥٨] مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ) تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، جزء ٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

[٥٩] المختصر في المصطلحات الصوفية، وذناني بو دود، سلسلة أبحاث مخبر اللغة العربية، الأغواط، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.

[٦٠] مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر العباسي (١٣٢هـ – ٢٣٢ هـ)، مصطفى بيطام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، ١٩٩٥م.

[٦١] معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٤م.

[٦٢] المعجم الفلسفي، جميل صليبا، جزء١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢م.

[٦٣] معجم المجانين من الشعراء، قيس كاظم الجنابي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

[٦٤] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م.

[٦٥] موجز تاريخ الجنون، روي بورتر، ترجمة: ناصر مصطفى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠١٢م.

[٦٦] ميزان العمل، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.